جيلان حمزة

اللعب والحقيقة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار الحمامي للطباعة
شارع الجيش . كنيسة الأرمن

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الداخلية
الوزير

السيدة / جيلان عبد اللطيف حمزه

تحية طيبة وبعد :

تلقيت بالشكر والتقدير قصتكم " اللعب والحقيقة " وأنه ليسرني أن أهنئكم على هذا المؤلف الذى يلقى أضواء على جوانب العمل الفدائى الفلسطينى بكل ما يواجهه من صعوبات وكل ما يتطلع اليه من أمل .

وليس من شك أن أدب المعركة يلعب دورا حيويا فى اذكاء المشاعر وتبصير جماهير أمتنا العربية بأبعاد الموقف وتبشيرها بما ينتظرها من نصر قادم باذن الله .

ومع أطيب التمنيات أرجو لكم دوام التوفيق .

١٩٧٠/٤/١٩

وزير الداخلية

(شعراوى محمد جمعه)

الاتحاد الاشتراكي العربي
منظمة الشباب الاشتراكي

السيدة / جيلان عبد اللطيف حمزة

تحية طيبة وبعد :

يسعد منظمة الشباب الاشتراكى أن تهنىء سيادتكم على حصولكم بجائزة القصة فى المسابقة التى أعلنت بمناسبة إقامة المؤتمر الأول للأدباء الشبان الذى أقامته المنظمة فى محافظة الشرقية . فى المدة من ٤ ديسمبر ١٩٦٩ وحتى ٨ ديسمبر ١٩٦٩

وفقنا الله جميعا لما فيه خير الوطن والشباب ،،،

في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩

أمين عام المنظمة
(حسن الرزاز)

الإهداء

إلى أفراد الشعب الفلسطيني

الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق

ليعودوا إليها قريباً بإذن الله ؟

جميلة حمزة

مقدمة

كثيرون قالوا لى: إن الرجل وخاصة العسكرى أقدر منك على الكتابة عن الفدائيين والمحاربين فهو على الأقل يعرف ويفهم الاصطلاحات العسكرية مثل : المزاغل والعبور و... و...

وكثيرون قالوا لى : مالك أنت والكتابة عن الحرب . اكتبى عن المرأة من حيث كونها امرأة ... واتركى هذه السطور عن الحرب لغيرك .

وردى على هذا سهل جداً ، فالفدائيون والمحاربون هم أنا .. فأنا منهم وهم منى فكيف لا أحسن التعبير عن نفسى ولا أفهم الاصطلاحات العسكرية .

العسكرى والفدائى هو الأخ وابن العم وابن الخال .. ومن هوى منهم فى الميدان هم كذلك الإخوة وأبناء العم وأبناء الخال ، قد تحدثت مع بعضهم قبل القيام بالعمليات وبعدها ...

ولعلى بعد هذا أستحق أن أكتب عن الفدائيين .. ؟؟ لعلنى بذلك أنقل صورة دقيقة عن نفوسهم وما يملؤها من انفعالات دقيقة أو كبيرة

حتى ولو كانت تسىء إليهم ... فأنا هنا لم أشأ أن أظهر الفدائيين والمحاربين كما تصورهم الجرائد والمجلات من الجانب المعركى فقط ... ولكنى أردت أن أظهر كل الجوانب ، فهم بشر قبل كل شىء ... وبعد كل شىء .

وإذا كان الألم ، والضياع ، والحرمان ، وكل ما يمكن من كلمات لها وقع القسوة فى النفوس قد فرض عليهم فرضاً ، إلا أن هذا لم يمنع مشاعرهم من أن تغلى وتفور ... تتفاعل لتنضج ... وتتفاعل ليفرض عليها الموت .

ولكنهم مع هذا ومع عظمة هذه الثورة التى تفور فى نفوسهم ، وتصطخب فى صدورهم ، على عظمتها وضجيجها ، فإنهم والحق يقال قد برعوا وما زالوا بارعين وقادرين على إخمادها مشتعلة ، وعلى وأدها حية ، ليبقى شىء واحد أمام أعينهم ، وهدف لا ثانى له ، وهو الأمل كل الأمل فى استرداد أرضهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم . وبعد ذلك يتركون لمشاعرهم العنان فى بناء صرح السعادة التى كانوا يحلمون بها قبل المعركة وتحقيق الأمانى التى أخمدوها زمناً ...

وأريد أن أنتهز الفرصة لأسجل شكرى لوزارة الثقافة والإرشاد ولمصلحة الاستعلامات وجامعة الدول العربية والسفارات العربية والصحف العربية وكل من تفضل بتزويدى بالمعلومات القيمة التى أعانتنى على كتابة القصة ...

وبهذه المناسبة أقدم اعتذارى للشخصيات التى ورد ذكرها فى هذه القصة ، لأنى لم أنتفع بجميع المعلومات التى جمعتها عنهم وذلك لأنى لم أستخدم من هذه المعلومات إلا ما تطلبه السياق وأكبر ما أرجوه أن تعطى هذه السطور صورة قريبة من الكمال للعمل الجسيم والتضحية البالغة التى يقوم بها شعب فلسطين المجيد ؟

م . بلاده

الفصل الأول
أبعاد صبية

على رءوس أصابعى جريت إلى والدى ...

فالفجر يؤذن للصلاة ... لكم أحب هذا الصوت الذى ينبعث من المسجد القريب من بيارتنا ... أفتح باب منزلنا وأقذف بنفسى فى وسط الحديقة .. كأنى كنت أنتظر طول الليل هذه اللحظة ... فأنا أحب رؤيه الطبيعة فى ذلك اللون الأبيض لون أول خيوط الفجر ...

الخيط الذى على عتبة البدء ... فأحس فى وقفتى هذه أننى أجمع الليل والنهار معاً ... فأنا لا أستطيع أن أقول أن الليل رحل كلية ولا النهار أتانا نهائياً ...

إنى فى الفجر جامعة الاثنين ...

على رءوس أصابعى جريت إلى والدى ، وما زال الفجر يؤذن له وأنا أعرف أن والدى ينتظرنى لأصلى معه ...

هكذا عودنى والدى رغم إلحاح أمى فى أن أنام حتى مطلع الشمس .

فلقد أغلقت المدارس مبكرة هذه السنة على غير العادة ... فلا داعى أن تبكر الفتاة مطلقاً .

هكذا دائماً أمى تهمس لأبى بهذه العبارة ...

وأنا لا أعرف حقاً لماذا تغلق مدرستى دوماً هكذا ...

المهم أن والدى ينتظرنى لأصلى معه .. ثم نذهب سوياً إلى الحديقة .
ولا أعرف لماذا أقهقه حين نكون فى الحديقة فى مثل هذا الوقت من كل يوم فيسألنى والدى :

— على أى شىء تضحكين ريم ؟

فأقول :

أما ترى يا والدى أن الأشجار والورود بأنواعها تضحك فلا بد لى من أن أرد عليها .

— خيالك خصب يا ابنتى .

— والله يا والدى وحياتك عندى ، إن الأشجـــار تضحك لى بجذوعها . وتبتسم لى ثمراتها ...

هذا حقاً ما كنت أراه بل أكثر من ذلك فلقد كنت أحس فى أثناء سيرنا بين ممرات الحديقة أن فروع الأشجار بحجمها هذا الكبير تميل ناحيتنا لتقدم لنا ثمارها الكثيرة ...

الأشجار بثمارها ، وهذا الوقت من الصباح ، ووجود أبى بجوارى يحتضننى فى أثناء سيرنا ... كل هـذا كان له صوت الجنة .

وهل يمكن أن تكون الجنة أكثر جمالا من هنا ؟

فى حجرة مكتب والدى ... بدأ يتشاغل عنى فى رسوماته الكثيرة وتلك الأدوات الخشبية التى يستعملها فى قياس الأبعاد والمساحات .

يرسم ... ويخطط فى دقة .

وأنا أنوى فى أحلامى أن أدرس لأكون مهندسة مثله أنفذ كل ما يدور فى رأسى على الورق ... لأطبقه على الطبيعة ... ويحس أبى بما أنتوى فيرفع عينيه الطيبتين عن الورق ثم يقول لى وأى شىء تودين تنفيذه ياريم .

فأقول له وأقول ... أحكى له عن صورة كل مساحة صغيرة أو كبيرة فى عقلى حتى أقول له :

— وتنقل هذه الجبال من مكانها فإنها تحجب البحر عن عينى يا والدى ... إنها تبتلع الشمس خلفها قبل أن يحين أوانها ... مثل الثمار التى تقطف قبل موعدها ... حرك لى هذه الجبال من مكانها يا والدى .

فيقول لى : —

— والله يوم تتحسن الأمور لأجعلن من يافا مدينة العجائب .

— وتزيل لى هذه الجبال ؟

فيضحك ليقول لى :

من الأحسن أن أنقلك من حجرتك هذه إلى حجرة أخرى لترى البحر .

هذا أسهل من نقل الجبال .

والدى يتركنى كعادته فالشمس أوشكت أن تتوسط السماء تركنى

إلى حجرة مكتبه ليسبح فى حلم إعادة تخطيط يافا من جديد ... وأنا أنوى رؤية البيارة .

أتلفت حولى لأتحين فرصة الخروج من دارى ...

فهناك تعليمات جديدة من أمى بألا أخرج من الدار كعادتى فى ذلك ...

لا تهمنى سخونة الرمال تحت قدمى ...

لا تهمنى البتة فمنذ نعومة أظافرى ... وأنا أتحدى نفسى دائما

أتحدى نفسى ...

أختبر قوة إرادتى وأمشى فى هذا الدرب !!

دربى عارية القدمين ...!!

أحس لهيب الرمال المحرقة ...

الرمال التى تتسلل بين أصابع قدمى لتزيد ألمى ...

ولكن لا تهمنى سخونة الرمال ... !!

فأنا دائماً أتحدى نفسى !!

أختبر قوة إرادتى

وأمشى فى هذا الدرب الحارق

وما الذى يعنينى ، أن الرمال على قسوتها ولهيبها تتهاوى تحت قدمى الصغيرتين وتبتعد عن بعضها ... فتغوص قدماى أكثر ...

ثم تغوص أكثر وأكثر ...

يارب إن باطن الأرض أقل حرارة ...

يالرحمتك يا بطن الأرض ... ولم لا ؟؟

بطن كل شيء أكثر حناناً ...

هكذا قالت لى أمى ... وأنا أتحسس بالأمس بطنها المنتفخ وظنى ... كل ظنى أن هذه الحركات التى يأتى بها الجنين ... ما هى إلا تعبير عن ضيقه بالحياة فى بطن أمى :

ولكنها قالت لى :

— أبداً يا ابنتى إنه هنا فى الدنيا الواسعة وأنت فى الدنيا الضيقة ...

ولكن هل حقاً دنياى ضيقة ؟؟

الدنيا واسعة وخاصة هنا فى يافا ...

الدنيا واسعة وجميلة جداً ...

وسيزداد جمالها إن نجحت فى أن أجعل ثمار شجرة الليمون أكثر وأسرع من ثمار شجرة ياسر ابن عمى ...

ولم لا ؟ إنى أعتنى بها ... أرويها يومياً وأحميها أجلس بجوارها طول اليوم . أنظر إلى ثمارها وأقيس حجمها . ويضحك ياسر على ... يضحك ملء شدقيه .. !!

وهذا ما يثيرنى

فأنا لا أحب أن يضحك على أحد

حتى لو كان ياسراً ..
آه من الرمال إنها تحرق قدمى
ولكن لا يهمنى ... لا يهم
المهم غرس يدى . شجرة الليمون ...
ها . . . ها . . . ها . . . سيقولون هذه السنة إن ريم تفوقت على ياسر . . .
ويضحك أبى وهو يتحسس وجهه قائلا :
— هكذا دائماً أنت ريم . إن أردت فعلت ...
ثم يتجه إلى ياسر ويقول :
— ها ... ها ... لقد تفوقت عليك يا ياسر
وسيقف ياسر مبتسما ثم يقول لى فى الحديقة :
— ريم لقد أعطيتهم وأنت منهم مادة يتفكهون بها على وهذا ما يسعدنى ، وأنا لا أفهم أحياناً بل أحياناً كثيرة جزءاً كبيراً من كلامه ولكننى أتظاهر بأنى أفهم كل ما يقول . حتى لا يقول لى :
— من الظلم أن أحاول أن أفهمك يا ابنة الثانية عشرة
يا إلهى وهل اثنا عشر عاماً بالشىء القليل !!
آه يا شجرتى العزيزة هذه ثالث مرة أزورك فيها اليوم . فأنا لا أنساك حتى بعد رحيل الشمس ...
فى هذا الظلام أزورك ... !!
يا إلهى ماذا أسمع . إن والدى ينادينى بكل ما فيه من قوة

يا وعدى اليوم ...

لقد نبه علىّ أكثر من مرة ألا أبارح الدار بعد الغروب

كفى ... كفى أيتها الرمال عن مضايقتى ... فيكفينى ما سأسمعه من والدى الليلة ...

ريم ... ريم ... ريم أنت أيتها التعسة

ياليلى الغبراء اليوم ...

ماذا تفعلين ياريم ...

سأتصنع النوم تحت شجرتى ولا أرد ولا أتحرك ...

النوم ... النوم ... أحسن مخرج لى .

ولـكنى تنبهت على من يضع قبضة يده القوة على كتفى ليسوقنى أمامه فى سرعة عجيبة ! !

إنه ياسر .

وفى الدار ألقوا بى على صدر أمى ولـكنى أحسست بطنها المنتفخ ينتفض بانتظام وهى تحتضننى بقوة ... وحين رفعت إليها وجهى اصطدمت بوجها مبللا بالدموع الكثيرة الساخنة .

شعور بالخوف ملأنى .

قلبى ينبض خوفاً .

أتنفس خوفاً .

أتلفت حولى فيخيل إلىّ أن الأرائك والمقاعد وحتى بساط الأرض الأخضر الذى أحبه كثيراً .

كل هذا يشاركنى خوفى .

هناك شىء يحدث .

وما زال بطن أمى ينبض تحت صدغى فى شدة وكأن الطفل هو الآخر ينبض خوفاً .

كل شىء حولى خائف مثلى

إلا ياسراً .

إنه يروح ويجىء فى سرعة . يعقد يديه مرة ويتركهما يسقطان مرة أخرى .

بين آن وآن أرى ياسراً بهذه الصورة .

ولـكنى فى هذه الأيام أراه هكذا كثيراً .

وكثيراً جداً .

أبى جالس على أحد المقاعد فى ركن من الحجرة عاقداً يديه تحت ذقنه يتابع بعينيه وجه ياسر وأخوتى الخمس يلعبون على بساط الحجرة ولا أدرى لماذا ودائماً أمى تختارنى لتحتضننى بشدة فى هذه الأمسيات ودون أخوتى جميعاً !

ربما لتسمعنى نبض بطنها المنتفخ .

أو ربما لأننى كما تقول كبرى أولادها . وأول مارأت عينها .

وفى صمت مصطنع تسلل ياسر وأبى إلى حجرة المكتب لصلاة العشاء .

تلفت حولى أتحسس أجساد أخوتى الصغار .

كانوا جميعاً قد ناموا على بساط الحجرة ...

فتسللت من على بطن أمي المنتفخ وأحسست أن ما بداخله هو الآخر قد نام ... ذهبت لأحضر غطاء أدثر به أخوتى الصغار ... ثم هربت من صدر أمى وذراعيها بالتظاهر بالنوم . بجوار أخوتى . ولـكنى انسحبت دون أن ترانى فى الظلام ... وذهبت إلى والدى فى حجرته وكان ما زال يتحدث فى صوت خفيض يوحى بالصمت المصطنع . وما زالت الإضاءة منعدمة وسمعت والدى يقول بأن هذه الحال لن تستمر أكثر من دقائق فأنا لا أسمع أن هناك أثراً لأى اشتباك

ولم يرد ياسر

هناك شىء يحدث ولـكنى لا أدركه تماماً ...

وهممت أن أسأل ياسراً ، وابتدأت أتحسس موضع قدمى إليه حين أضيئت الحجرة فجأة ... فصفقت ملء كفى وأنا أردد

النور ... النور ... النـ

ولـكن انخرست الكلمات فى حلقى وأنا أعى ياسراً يبكى ووالدى وقد طال سجوده فى ركن آخر من الحجرة يدعو ويضرع إلى الله بأشياء وأشياء ...

ومع هذا ...

مع كل هذا تقدمت هادئة بطيئة كلى إصرار كعادتى دائماً فى أن أعرف كل شىء ...

خصلات شعرى تـكاد تنخلع من رأسى فى يد ياسر وهو يحملق فى بعينيه الغاضبتين قائلا :

— ريم أدعى معى قولى . قولى يا فتاة لبيك ...

لبيك يا فلسطين لبيك ...

سنحررك بالروح والدم ...

وابتدأ صوتى خفيضاً ثم أخذ يعلو ويعلو مع تفسيرى لما تحمل هذه الكلمة من معان

قطع والدى صلاته وجاءنا مهرولا مشيراً بيديه أن نخفض من صوتينا ...

وقبل أن نتم دعاءنا ...

حدث شىء عجيب

حدث شىء جسيم!

حدث كل ما يمكن أن يحدث

أنقذنى يا إلهى . . إرحمنى يا ربى

اجعلنى أميز بين نومى ويقظتى . وهل يمكن أن تكون اليقظة بهذه القسوة ؟

أين الحجرة التى كنا نجلس فيها من دقائق ؟؟

أين نحن ... ؟؟

لقد انهار واندسر كل شىء فى لمح البرق

فى أقل من لمح البرق

والأرض ما زالت تهتز والسماء ما زالت تمطر القنابل ممزوجة بالسخط علينا . فلم أجد تلك الجدران الأربعة التى كانت تحيط بنا

من ثوان ، لم أجد إلا والدتى بعد أن سقط الحائط الذى كان يفصل حجرتها عن حجرتنا وما زالت جالسة على نفس مقعدها وبطنها أمامها.

خيل إلى أنها ازدادت علواً عن ذى قبل وكأن من بها يستجير بالله هو الآخر ...

صراخ ...

صراخ الأطفال ...

كلهم يصرخون . كلهم ينزفون دموعهم . أصواتهم كل شىء فيهم .

ثوان يا آلهى والله ثوان ...

كل هذا فى ثوان ...

ياسر يبعدنى عنه ويجرى إلى والدتى يحملها بين يديه . يسقيها ... يطمئنها ... ويطمئن عليها ...

ووالدى وقد تشبث به إخوتى يحتضنهم بقوة ... حتى خيل إلى أن يديه المعروقتين ماتتا عليهم ...

أنقل بصرى بين أبى وإخوتى وياسر وأمى ولا أدرى تماما ما الذى يجعل أمى تتشبث بى دائما وتختارنى دون إخوتى لأكون دوماً بين ذراعيها الضعيفتين ...

ربما لأنى أكبر أولادها وأول ما رأت عيناها الباهتتان .

تسللت رغم خوفى العظيم خارج حطام دارنا .

نعم خارج هذه الكومة من الحجارة والأتربة .

من بقايا بيت تسللت خارجه إلى حديقتى الصغيرة ...

باحثة عن بعضى

باحثة عن شجرتى

تلك التى أرويها كل يوم وأنتظر ثمارها كل يوم

شجرتى .. غرس يدى .

لا الشجرة ولا حطامها كان لى أمل أن أجده . .

فتجولت فى الحديقة وشعور يطفح منى أن اليوم كان آخر لقاء لى

مع شجرتى .

غرس يدى .

الفصل الثانى

بقايا أمـــل

لا بيت لنا . .

لاطعام لإخوتى الصغار .

لافراش لأمى .

فقد ضاع كل شىء . وضاعت محاولات والدى وياسر المستمرة فى تركنا نحيا بين أطلال دارنا ، فنحن لادار لنا ولا نستحق أطلالنا .

كان لدى استعداد ويقين يملؤنى أنه يمكننـا إعادة بناء دارنا لبنة لبنة حتى تعود الدار لنا من جديد ...

فالجو قاس ...

والسماء تمطر سخطا وقنابل ...

وعين أمى تمطر ضياعا وخوفا ...

ولـكنى كنت مصرة ، وكم كنت رائعة فى إصرارى هـــذا ... أحمل اللبنات فى ردائى وأضعها بعضها فوق بعض لأقيم الجدار من جديد فيأتى الرجل المسلح ضاحكا ليركل جدارى ساخراً كل يوم .

فأقوم فى الصباح الباكر وأعيد الـكرة من جديد وكلى أمل ...

ولـكن دائماً يأتى ذلك الرجل بحلته العسكرية ليركله من جـديد وهو يضحك ...

إلى أن بلى ثوبى وتمزق من كثرة ما كنت أحمل فيه من لبنات .

ويومها ضاعت محاولاتى عبثاً فى أن أجد إبرة وخيطاً من أى لون . لأرتق به ثوبى .

أمى تخاف على كثيراً تنصحنى بعدم محاولة بناء الجدار من جديد وأنا فى اندفاعى الأعمى لا أسمع لها نصحاً . على العكس كنت أضيق بكلامها هذا وبكل ما تنصحنى به وخاصة فى هذه الأيام .

فذهبت إلى ياسر والسخط يملأ أضلعى التى ظهرت من ثقوب ثوبى الكثيرة .

فأنا لا أجد لى أثواباً من يوم أن انهدمت دارنا ...

ومن يومها كففت عن محاولاتى فى أن أعيـــد بناء جدارنا حين قال لى ياسر :

— على أى شىء تندفعين يا بلهاء ، وأى بناء وأى حائط أنت تحلمين .

— هل تعتقد يا ياسر أننى أخاف الرجل الذى يأتى ليهدم جدارى كل يوم .

— تبآلك من فتاة .. نحن موجودون هنا فى وسط هذا الحطام إلى أن يقرروا ... ماذا يفعلون بنا بعد هـذا .

ومن يومها فهمت كل شىء وفسرت جميع الأمور ووضحت الصورة كاملة غير منقوصة فأحسست بعلقم فى حلقى ...

فقد عرفت مكاننا تحت الشمس .

عرفت من تكون .

وعرفت من أنا .

فأنا وهم وهو ... لا بيت لناولاوطن لناولا صوت لنا أو إرادة أحسست غربة ووحشة قاسية حتى وأنا بين ذراعى أمى ... أتحسس بطنها بصدغى ... أحاول أن أسمع تلك النبضات التى كنت أسمعها من قبل .

ولكن هيهات كانت مختلطة فى أذنى بصوت قنابل الأمس وأول الأمس .

صوت قنابل الصباح . !!

وصوت قنابل الغد . !!

الدماء والموت يحيط بنا من كل جانب !

فنحن نتنفس الموت فى كل لحظة .

نحن نحيا معه وفيه ...

وكلما سألت عن إحدى صديقاتى .

صديقات الحى والمكان الواحد .

كان يشار لى إلى مكان مرتفع قليلا من الأرض .

وأعرف أنهم استبدلوا جدران منازلهم ... الرقاد تحت التراب ... فهم هنا فى مرقدهم هذا لا يستطيع أحد أن يأخذ باطن الأرض منهم .

وهنا عدت بذاكرتى إلى الوراء حين كانت الرمال ساخنة تحت قدمى وأنا أسير فى الحديقة لأروى شجرتى ، وتذكرت حين كانت قدمى تغوص فى باطن الرمال وأحس أنه حنون أقل حرارة من سطحها .

أين بستان الأمس القريب ؟

سؤال لا جواب له أوجهه إلى نفسى !

سؤال لا معنى له .

فلقد انقلبت الروعة إلى المسخ المخيف .

الشدو إلى النحيب الموجع . وأنا أسمع أصوات أصدقائى الذين فضلوا باطن الأرض على سطحها .

أسمعهم كأنهم يكلمونى .

أسمع ضحكاتهم مختلطة بنحيب أمهاتهم وزفرات آبائهم بين الآن والآخر .

إلى أن جاء اليوم الذى استدعى فيه والدى إلى مركز شرطة يافا وهناك تلقى أمراً بالرحيل فوراً وأعطوه ثمناً للمنزل والأرض .

أعطوه ثمناً غير مجزياً ؟

وقلت نذهب إلى خالتى فى القدس !!

فكان الجواب صفعة على وجهى المتعب من أحد المسئولين الواقفين للاشراف على رحيلنا . وفهمنا جميعاً أن القدس أصبح الوصول إليها ضرباً من ضروب المحال .

ومع هذا صمم والدى على الوصول إليها . لحملت أكتافنا المثقلة كل ما استطعنا العثور عليه بين أنقاض الدار ... بعض الأغطية وحذاء لوالدى ... ولم نعثر على أثر لثوب .

ثوب أغطى به جسمى .

أتلفت كل عدة خطوات أرى أطلال دارنا .

أتلفت كل عدة خطوات أرى بقايا جيراننا .
أسمع بقايا أنينهم وزفراتهم ثم أعود لأصدم عينى بأطلال دارنا .
فهذا المكان عزيز علىّ حتى وهو طلل .
آه يا دارى .
هل يمكن أن يكون لك كل هذا الصدى الموجع ، كل هذا الألم . .
كل هذه الوحشة ...
دارى ... أيناك يادارى .
وضاع ندائى الصامت ...
آهاتى الصامتة حين اصطدمنا فى الطريق قرب مشارف القدس بمجموعة من الجنود الإسرائيليين يفتشون أبى : لا ... لا يفتشونه بل يتقاذفونه لبعضهم البعض وهم يقومون بتفتيشه إلى أن عثروا على ثمن منزلنا ...
بضعة ليرات .
قلة من الليرات .
ومع ذلك استكثروها علينا فقام أحدهم بالاستيلاء عليها .
يا لذلنـا ...
غرباء فى أرضنا ...
يا لضعفنا لم يجسر ياسر ولا والدى ولا أنا ولا أخوتى على الاعتراض مطأطئون الرؤس نحن ...
شكلنا هكذا ذكرنى بهامات أشجارنا بعـد أن أحرقوها ...
أسأل نفسى عما يمكن أن نلبسه من معاملة أكثر امتهاناً وسخرية .
أكثر مرارة من تلك التى مارسوها فينا ونحن فى بداية طريقنا ...

لمحت ظهر والدى وهو يسير أمامنا حاملا الأغطية على كتفه ...
وراعنى هذا الانحناء البادى فى ظهره ...
تغير والدى ... بين يوم وليلة كمن كبر مئات السنين ..
موجات من العطف اللاذع تصطخب فى صدرى الصغير .
شىء بداخلى ينزف كلما وقع نظرى على ظهر والدى ..
لم خلق الله الحب لنتعذب به ؟؟
لماذا خلقت لى أباً دقيق التكوين . هادىء العينين . يحبنى كل هذا الحب ؟
لماذا خلقت له ريم . لتتعذب من أجله ويتعذب من أجلها ؟ .
فى هذه اللحظة لم أستطع أن استوعب فكرة الحب ...
فلقد حاولت أن أقنع نفسى أننى لا أحب أبى وهو لا يحبنى ..
وأنا لا أحب دارنا ..
ودارنا هى الأخرى لا تحبنى ... ولكن والدى تلفت لجأة إلى وقال :
ـ أراك يا ابنتى متعبة . أتذكرين ريم حين كنت أحملك بين ذراعى وأنا أمشى بك فى شوارع يافا ...
ـ نعم ... نعم والدى ...
وهم أبى أن يحملنى مرة أخرى لأنه أحس بتكاسل خطواتى ...
فتسلقت عيناى قامته القصيرة وتسمرت على ظهره المحنى ... ولم أستطع أن أحبس دموعى أكثر من هذا ...
فأنا لم أبك منذ أن ضاعت دارنا ...

دموعى لها سخونة الحريق ...

كلى يبكى وينتحب حتى أنى كنت أضرب الأرض بقدمى وأنا أردد ...

— لا أريد أن أرى ظهرك هكذا يا والدى ... لا أريد ... لاأريد

فأكثر ما كان يمزقنى أرباً أرباً أن ألمس الشبه الكبير بين والدى وبين الأطلال ...

ومن يومها استبدل والدى مكانه بمكان ياسر الذى كان يسير فى مؤخرة مسيرتنا وتقدم هو أمامنا .

ومع هذا كنت أتلفت خفية بين الحين والآخر لأرى والدى فتحتضننى عيناه الهادئتان ويجاهد حتى يبتسم فى وجهى ... وما زال يعرض على أن يحملنى بين ذراعيه فكفانى سيراً لم أتعوده من قبل كما يقول ... و

وفجأة وجدنا أنفسنا نتوقف برهة عن المسير نلتقط فيها أنفاسنا المتبعة من أثر تسلقنا لأحد الجبال .. وراعنى أن والدى يبتسم هذه المرة من قلبه ، ثم يحاول أن يبسط ظهره إلى الوراء حتى لا يبدو لعينى مقوساً . وتابعت عيناى مجال نظره وانتقلت الابتسامة إلى شفتى أنا الأخرى ...

لقد رأيت شيئاً رائعاً ...

رأينا مدينتنا الحبيبة تبرق تحت وهج الشمس تحيطها الأشجار من كل جانب ...

آن لنا الأوان أن نتنفس ونحس الاستقرار والأمان ...

حقاً إحساس بالأمان يتساقط من نظرات والدى وياسر متحفظ كعادته ... يبتسم بجنب من فمه ثم يرمقنا جميعاً واحداً بعد الآخر . ويطيل التحديق فى أنا ...

وابتدأنا نهبط الجبل ... ياسر يساعد والدتى فى الهبوط ... ووالدى يحمل صغاره على كتفيه وبين ذراعيه هابطاً بهم . أما أنا لحملت الأغطية ...

وما أن وطئت أقدامنا مشارف القدس حتى تصدت لنا عصبة من الرجال ، وأول ما فعلوه أن أخذوا الأغطية منا ...

لا يهم فقد أخذ منا كل شىء ...

فلا تهم الأغطية ... سوف نجد فى بيت خالتى أحسن منها ...

وبعد أسئلة وأجوبة ، وإعادة تفتيش مرة ومرات ، قال أحدهم موجهاً كلامه إلى والدى :

أرى أنه لا نقود معك أيها الرجل ؟

ثم التفت إلى باقى الجمع من العسكريين وقال لأبى وهو يضحك :

— لا مال لديه بالمرة ومع ذلك عنده خمسة أولاد

ثم أضاف ضاحكاً وهو ينظر إلى أمى :

— والسادس فى الطريق ها ... ها ... ها

وبكعب بندقيته ضرب والدى على ظهره المحنى وقال :

— أما تخجل من نفسك أيها الكهل ها ... ها ...

وهنا تغيرت ملامح وجه أبى وقال :

— لقد كان عندى الكثير ولكنكم أخذتموه ...

ولم يتمم كلامه فلقد انهالت عليه الضربات واللكزات من كل جانب ... كأن لا حق له حق فى الدفاع عن نفسه .

الإعياء كلمة لا تستوعب كل ما نحمله من ضياع ...

الهواء أنين خافت يتحد بصدق مع أخوتى الصغار

الهواء أنين محتضر يمتزج مع دوى القنابل فوق رءوسنا

وهو لزج ثقيل ممتزج بدخان المدافع ... فلابد لنا أن نتنفس الدخان لنشم الهواء ...

الحريق والدخان والعدم باتت من العناصر المكونة لدمنا أياما وأياما منذ تحطم السقف الحامى الذى كان يأوينا وأنا أتنفس الحريق مع الهواء ...

ليال وليال قضيتها زادى كل زادى صور فى قاع مخيلتى . فكنت أستبدل بقايا الدار وصورها البشعة بتلك الصور التى كانت عليها فى الماضى القريب .

الدار كلمة من قاموس المستحيلات ...

الدار لغيرنا فقط ...

استباحوا دار خالتى . استباحوها لهم فقط .

وساقونا إلى جزء بعيد من مكان مهجور اسمه القدس العربية حيث لا شىء هناك ...

والتصقنا بمجموعة من أمثالنا ...

نفوس بشرية طبعاً ...

فنحن لم نتحول إلى حيزانات بعد ...

نفوس كاملة ونفوس تركت بعضاً منها فى طريق الهرب ...

تركوهم أحياء ضاعوا فى خضم ذاك الجحيم ... !!

وتركوهم أمواتا بين أنياب الذئاب ...

ضقت بالأسلاك الشائكة ... !!

الأسلاك الشائكة فى عينى ...

فى حدقة عينى ... !!

شريط من معدن طويل يفصل بين نوعين من الحياة ...

فى هذه المرة تركونى وياسراً ... نجمع بعض الأحجار لنصنع منها حائطاً يحمى ظهورنا ...

وكان هذا داراً لنا فى من أطراف القدس ...

ــ دارنا بلا سقف !

سقف يحمى أمى وهى تضع وليدها :

وأنا لا أستطيع أن أقدم لأمى سقفاً لدارها

ولا أستطيع أن أقدم لأمى شيئا تقتاته :

والدتى تطيل التحديق إلى السماء ...

سمائنا الغاضبة ...

رباه ... لقد أعطاهم والدى مادة يتفكهون بها علينا ، نعم أعطى العسكريين هذه المادة حين انحنى مسرعا يلتقط قطعة من الخبز الأبيض ألقتها له عبر الأسلاك حفنة من هؤلاء الجنود ...

ها هم أولاء يلقون بقطعة أخرى ... ليتسابق عليها أخوتى الصغار ...

أنقل عينى مشدوهة بين والدى وهو ينظف بحنان بالغ قطعة الخبز ليقدمها لأمى ، وبين أخوتى وهم يزيحون بعضهم البعض من أجل الكسرة الأخرى ...

يا ويلى وإلى أى درب انحدرنا ...

أين حدائقنا وفاكهة يافا من كسرة خبزهم العفنة ...

وأكثر ما ضايقنى أن والدى كان مع تكرار إلقاء الخبز له يهلل كطفل كبير ثم ينظفها بعناية ليقدمها لأمى ...

فى هذه الساعة كان يخيل إلى أن هذا ليس أبى ... كانت هذه لحظات يغيب فيها عن وعيه ينسى عمره الكبير ... ينسى شخصه الكبير ... ويذكر فقط أن هناك امرأة حديثة الوضع ...

امرأة ترقد جائعة عطشى ...

لحظات غيبوبة قصيرة يصاب بها ...

وأنا أتنفس ناراً فإن والدى يموت أمامى كل يوم ...

يموت ومازال حيا ...

عقله يموت ...

وأحاسيسه الكهلة تموت

أصبح كصورة ممزقة ولكن لها إطار لامع

صورة ما زالت معلقة على حائط ما ...

رغم تهدم الدار ...

عاد إلينا ياسر بعد ليلتين من الغياب ورأى تلك الصورة التى كنت أراها كل يوم ...

فاندفع كصقر جارح وألقى بنفسه على جسد والدى المحنى وخطف كسرة الخبز من يده وألقاها فى وجه الواقفين خلف الأسلاك ...

نشب والدى أظافره فى وجهه وهو يقول بصوت يشبه العويل ...

— زوجتى يا مجرم لابد لزوجتى أن تأكل

أزاح ياسر والدى فى قسوة فسقط منكفئا على وجهه فى الأرض ...

وأحسست بالشبه الكبير بين سقوط دارنا وسقطة والدى...

للأولى صوت القدر ... !!

والأخرى صدى نفس هذا القدر ...

نهاية اختارتها لنا مجموعة من الذئاب تشبه الواقفين خلف الأسلاك ...

رفع إلينا أبى عينيه الباهتين .

ولم أستطع أن أفهم فيهما شيئاً ...

هناك معنى ضاع من عين والدى ...

معنى غير مرئى ... ولكنى أحس به فى أعماقى ...

أشعر به يمزقنى... يسحقنى ثم يلقى بى فى عرض صحراء محرقة...

صحراء عين والدى ... !!

ولم تنفع اعتذارات ياسر له محاولا أن يلثم يديه محاولا أن يطمئنه بأنه أحضر فى هاتين الليلتين خبزا كثيرا ...

لم ينفع شىء...

فهناك شىء هرب من عين والدى

فلم نعد نفهمه ...

نحن لم نعد قادرين على قراءة شيء فى عينه

ومن يومها وأنا أجاهد بإصرار حتى لا أصدم بعين والدى ...

فأنا أكره الجمود ...

لأنه يذكرنى بقصتنا ...

فأيامنا جامدة عند هيكل يحمل معنى واحداً ...

وحياتنا جامدة هى الأخرى تخدم هذا الهيكل .

هيكل لرجل مشنوق فى جذع شجرة مغروسة فى العراء

وهل للمشنوق أن يتحرك ؟ إلا إذا مر به شانقه ليتفكه عليه ويهزه من قدميه المحتقنتين ...

هذا الشخص يأتينا يومياً من خلف الأسلاك الشائكة .

أنا آه يا أنا لحياتنا رهن انتظار هذا الذى يهزها ليضحك منا

وعين والدى مازالت جامدة ... ... جامدة ... ...

أثمالنا بالية ... والشتاء قارص يا قدس

أجسادنا عارية والشتاء فيك قارص يا مدينتى

وتذكرت بيتنا فى يافا من خلال نظراتى إلى أمى وهى تبكى أثر إطعامها لمولودها.

فبعد كل مرة تصاب بدوار وبرودة شديدة فيخلع ياسر بعض ملابسه ليعيرها إياها

حتى تدفىء جسدها الهزيل ... ...

أو يخيل إليها أن جسدها أصبح فى الحالة التى ترضيها من الدفء ...

أما إخوتى الصغار فلقد فكرت مئات المرات فى أن أدفنهم أحياء لأريحهم من كل هـذا العذاب .

فباطن كل شىء أدفأ وأكثر حناناً ... كما تقول لى أمى ... ووالدى شاخص ببصره إلى السماء ... ولـكنه لا يطلب منها شيئاً .

هكذا هى رغبته .

فلم يعد يسمع أنين أمى .

لم يعد يحس برودتها ...

لم يعد يتسابق ليلتقط فضلات موائد الآخرين ...

وتدريجياً أحسست أن بقية ما فيه من حواس قد جمدت

فهو لا يسمع أمى !

ولا يحس بإخوتى ... !

ولا يرى حبى له ...

ولا يشعر ألم ياسر من أجله ...

شىء ما سلب من والدى ...!!

فلم يعد والدى الذى أعرف ... !!

لم أعد أحس به روحاً ترفرف حولنا جميعاً ...

حتى يده الـكبيرة الدافئة وهو يمسح بها على شعرى وظهرى ... يده التى تشعرنى أننى مغطاة بسقف دار .

دار رغم هذا العراء ...

ما عادت يد والدى سقف بيت لنا ...

يد والدى بكاء هى الأخرى ...

رنين سوط فى أعمـــاقى وأبى لا يرحم ... وسهام تفرى كبدى باليأس والظلم ...

يأس من منظر إخوتى الصغار ...

ووالدى لا يرحم ...

ما عاد أبى هو أبى الذى عرفت ، ولقد يئست من استجدائه المرة بعد المرة .

واليوم بعد اليوم ...

ولـكن هيهات ...

الفصل الثالث

وذهب الحب

الخريف على أبواب الرواح ...
وخريف عمرينا لاينتهى ... !
هكذا حكم علينا ... فكل شيء يأتى ويروح إلا حبنا ... !

حبي لياسر ...
حب منذ نعومة أظافرى ...
حب فى سجن من صنع بشر لهم أظافر معقوفة ... لذا ... يفضلون لغيرهم الخريف الدائم ...
هكذا دنياى بفصل واحد فقط ...
خريف ... خريف ... خريف ...
فكل شيء يأتى ويروح إلا والدى ...
منذ أن ذهب متدثراً بالليل لم يعد ...
وقالوا ذهب ليتاجر ...
وقالوا ذهب مهاجراً ...
وقالوا ذهب ميتاً .! ميتاً يسير على قدمين ...!
لا أدرى تماماً ...
اللهم إلا أنه ذهب وتركنا هكذا ...

لم يعد لنا غير ياسر فهو الباقى الوحيد الذى يروح ويأتى من جديد ...
يتعلم فى إحدى المدارس الثانوية فى القاهرة ... ويحكى لى عنـــد عودته أنه يصرخ كل يوم وهو يحيي العلم فى مدرسته قائلا :

لبيك يا فلسطين لبيك ⁘ نفديك بالروح وبالدم

ويرد عليه باقى الطلبة ثم يقص لى عن رفاقه ويخص بالذكر واحداً منهم واسمه محمود رياض ابن ناظر المدرسة الدكتور رياض . لقد كان صديقه هذا لا يكتفى بالدعاء فى الصباح فقط بل يكرره مع كل آذان وأكثر من هذا فلقد كان يجمع من الطلبة كل يوم نصف ما يأخذون باسم فلسطين ليطبع المنشورات التى توزع على مدارس الحى، وفى مرة قال لى : إن هذا الطالب رهن ساعته فى يوم ليفى حق صاحب المطبعة ويعود إلينا فى الصباح محتضنا المنشورات التى تنادى بعودة بلادنا يا ريم ... و ... و ...

وتسأله أمى فى لهفة عن أبى ... !!

أمى تتصور دائماً أن كل من فى القاهرة يعرف أبى حق المعرفة ...
فمن رأيها أنه لا يوجد إنسان أكثر ألماً من أبى ...
فلابد أن العالم أجمع يعرف أكثر من حمل على كتفيه كل هذا القدر من الآلام ...
ونتنفس صمتاً ...
فلا جواب لسؤالها ...
سؤالها لحن يدق فى رأسى ...

لحن مشتت بين أفكارى وواقعى ...

الواقع ... الواقع أنه لم يعد هناك حرب ...

حرب قنابل ورصاص ...

الواقع يذكرنى بعينى والدى قبل أن يرحل عنا ... وذلك الجمود المطل فى جرأة منهما ...

فواقعنا جامد ... لا معنى له ...

فلا حرب ...

لا موت ... ولا دماء ...

ولكن لا حياة لنا !!

وهل عادت ديارنا لنا ؟؟

لا ... بعضنا هاجر . وبعضنا مات ...

والبعض الآخر ألقى به فى القدس خلف الأسلاك الشائكة ...

فى القدس الميتة ...

أما قد سهم فتقف مضيئة تتحدى جنة السماء ...

وكيف لحبنا أن يعيش فى ظلام قدسنا ...

آه يا إلهى لو نسترد قدسنا الوضاءة التى تقف هناك ... شامخة هكذا ...

هكذا ... حكموا علينا أن نعيش أقرب ما نكون إلى البهائم فى حظائر من حظائر القرن السابع عشر ...

أشياء كثيرة تختلط فى قاع مخيلتى الملتهب ...

قاع مخيلتي حزمة أسلاك كثيرة ولكن بلا أشواك
دارنا في يافا وشجرة البرتقال صديقتي وقد اغتصبوها بكرا ...
لن تزدهر مرة أخرى ...
الوجوه ذكريات وجوه ...
والأحاديث الهادئة أصدقاء أحاديث ...
الألوان بقايا ألوان باهتة ...
الصورة الأولى تتلاشى وتبهت فى مخيلتى ...
الألوان لثمتها الشمس بشفاه من نار ...
دارنا لها سقف ...
سقف لا ينفذ منه الهواء أو المطر أو حتى العيون ...
سقف من صنعى أنا وياسر ...
ولكن من هم خلف الأسلاك لهم حق النفاذ منه ...
فى أى وقت يشاءون ...
بدعة جديدة ... !
فكل ليلة يأتى من يعدنا واحداً واحداً ... يفتشون الحجرات ...
يقلبون المائدة الوحيدة التى فى دارنا بأرجلهم ثم ينصرفون ...
بدعة جديدة تثير ضحكى العزيز ...
وياسر يطيل التحديق فيهم ...
ياسر يخفى عنى شيئاً ...
شيئاً كبيراً وربما رهيباً..
فهو يخط رسوماً على الرمال ثم يأتى خالد أحد أصدقائه ليقرأها

بعدها أراهم يجيئون الواحد تلو الآخر .

تتسلل أمى وأخوتى خارج الدار ..

وأتسلل أنا داخلها ...

أسترق السمع وأعد الشاى ...

الهمس يعلو ثم يخفت ثم يعلو مرة أخرى وهم يطلبون منى مراقبة الدار ...

كلمات كثيرة .. كلمات طيبة حنون ... تتفاعل تغلى وتفور لتعطى لحياتنا معنى مرة أخرى ...

كلمات مقتضبة ولكنها تحمل شحنات من الإنسانية الضائعة .

معان ربما تعرف أين أبى ...

كلمات لابد وأنها تعرف أشق رجل فى العالم .

الرجل الذى حمل آلام شعب على ظهره المقوس ! .

كلمات كثيرة .

فدائى ، أرض سليبة ، جمعية سرية و ... و ...

فلقد انضم ياسر لإحدى هذه الجمعيات قبل أن يرحل إلى القاهرة وظل منتظراً أن يرسلوا فى طلبه .

وفى هذه الإيام بعثوا إليه بمن يستدعيه من القاهرة .

وأيقنت أن كلمة حب بكل أبعادها لا تستوعب كل مشاعرى تجاه ياسر .

لقد صار عملاقاً فى قلبى كبيراً إلى الحد الذى جعلنى أستهين بكل كلمة

لأنها لا تعطيه حقه العادل .

وأنا لا أحب أن أسلب أحداً حقاً .

وخالد صديق الدرب منذ الصغر .

خالد يأتينا كل يوم باسماً رغم ما حدث لأمه العجوز فى القدس .

عجوز تحت الأنقاض .

ولكنها لم تمت بعد ...

أصابعها تنفذ من بين كومة الأطلال ...

يدها تنبسط وتنقبض بضعف ...

أمام عين ابنها ...

أمام عين خالدها ...

وخالد ينفض عنها بقايا الهدم ثم يتحسس نبضها فى رفق ...

كانت المسكينة ما زالت تحاول أن تحيا ...

أخيراً ... توصل أن يحملها بين ذراعيه ..

فى هذه اللحظة أسلمت الروح ..

ولم يجد مكاناً يدفنها فيه .. ؟

كان دائماً يردد :

ليتنى تركتها مدفونة تحت الأنقاض .. على الأقل كانت وبقايا دارها ..

ولكنه تركها كجسد بلا صاحب .. تحت هول النيران المسعورة الشرر ..

رغم هذا كان يأتينا باسماً ..

رغم كل هذا ..

تأملته طويلا كان دقيق التكوين دقيق التقاطيع له عين صقر ..

كان يتفق هو وياسر على شيء واحد .. وهو ضيقهم الشديد لأنه لم يوكل إليهما بمهمة فدائية كبيرة منذ أن انضموا إلى تلك الجماعة السرية ...

خالد يهزنى من كتفى فى رواحه ومجيئه ..

خالد يشد على يدى ..

وأخيراً كلمنى .. عن آماله .. عن أحلامه .. عن الجمعية السرية عن تأخر المعونات عن الأوبئة عن الخيـــام .. عن اللاجئين عن الأردن .. عن مصر ..

كلمنى عن كل شيء ..

علمنى كل شيء ..

أنا فخورة بخالد .. فخورة بهم .. أحيا معهم ولهم ..

أحس ما يطلبون .

أسمع ما يتمنون ..

فى دارنا أتحرك كدمية قطعوا رأسها .

فى أحشائى أنين ..

أنين الخوف ..

خلا خالد ولا ياسر عادا بعد ..

والفجر يطل بعينيه الدامعتين على ..
وهما لا يأتيان ...
أسمع صوت دقات أقدام من يقتحمون دارنا كل يوم ..
الدار لا تتغير .. ولكن الدورية تتغير كل يوم ..
ومع كل يوم جديد يأتى إلى دارنا مقتحمون جدد ..
وأمى تستعير لوجهها لون الرماد مرة ولون السواد مرة أخرى من شدة اضطرابها ..
ما زالت عين الفجر دامعة وأنا أنظر إلى السماء البعيدة ..
سماؤنا كسيرة هائمة .. !!
لا إنها بعيدة غاضبة .. !!
فهى لا تحب أن تظلل غير شعب عرفته بعينه منذ القدم ..
شعب منها ولها .
يجب أن أنام قليلا .. فالغد مشحون بالأعمال ..
آه يا إلهى ..
الغد هو العيد .. وماذا أفعل فى أخوتى الصغار ..
كل ما أطلبه حفنة دقيق وقطعة صابون ..
أصنع لهم كعكة ..
أغسل دموعهم وملابسهم ..
كل ما أتانا به ياسر نفد ..
والغد عيد ..

يبدو أن ياسر نسي العيد !!

إنه محق ..

فالعيد كلمة لها أبعاد لانحسها ..!

لأننا بلا مدينة .. !

نحن بلا عيد ..!

حتى الصغار لم يروا العيد يوماً ..

فلو أتاهم غداً لن يستقبلوه ..

وأحسست النوم مسرعاً إلى جفوني المتعبة .. وقد استرحت إلى تصوري بأن الصغار لا يعرفون العيد ..

أنا فقط عرفته يوماً في جوار والدي ...

فالعيد باق والأطفال تتغير ...

شريط سريع يمر في مخيلتي ألتعبة ...

مخيلتي قاتمة أغلب الأحيان ...

وياسر يمثل بقعة ضوء في تلك العتمة ... أذكر صبانا ونحن نتسلق أحد جبال يافا ...

دوما أتخلف في الصعود ...

يحتضنني بين ذراعيه ... !؟

فهي فرصة رائعة ليعلمني الحب .. ؟؟

حب مدينتنا ...

يحتضنني بقوة ويقول :

ــ أنظرى ريم ... انظرى إلى جنة الله فى الأرض فأنا أحبها ...
أحب كل هذا الجمال ..

أحب كل هذا العطاء ...

ثم يقول:

ــ أحبيها ريم .. قبلى ثراها ..

ينحنى ليأخذ حفنة من الرمال .. يقبلها بصدق ..

كانت آماله تنحصر فى تعلم الطب ..

ليعلم شعبا الصحة .

وثالثنا خالد .. وآماله فى أن يكون مصلحاً اجتماعيــاً يخطب فى شعب بأ كمله ..

ويقرأ كتب الدين بنهم .. فهم لا يعرفون الإشباع ..

الواقع أنه لم يعد لنا مكان فى أى مكان .. سوى أطراف القدس يفصلنا عن الصحراء بضعة أمتار ..

ألمح من بعيد بقايا بيوتنا ..

أشم بقايا أشجارنا ..

إحساس يملؤنى ..

يستعبدنى إلى تلك الأرض حتى وأنا لم أعد أمتلكها ..

ياسر علمنى أن هذا الإحساس ليس مصدره أننا نملك أرضنا أو لا نملكها .. بل مصدره

أننا نفقد أنفسنا حين تغتصب مدينتنا ..

إننا نفقد وجوهنا إذا اتسخت مدينتنا ،
حتى إننا نفقد سماءنا إذا تشوهت مدينتنا ، بالأعداء الغرباء »
طرقات مفزعة على الباب .
طرقات مسرعة قوية .. لحد أننى لم أستطع أن أميزها كثيراً عن صوت القنابل .
آه يا إلهى التتميم علينا مثل كل ليلة .
كأننا مواش فى إحدى حظائرهم .
وكان السؤال لأمى .. عن عددنا وهل لدينا زوار الليلة .
وعادت أمى تستعير لوجهها لون الرماد تارة .. ولون السواد مرة أخرى وهى تجيب نعم لدينا فرد واحد زائد . .
وكنت أعرف معنى هذه الجملة ..
فجوابها أن يرمى الزائد بالرصاص فوراً .. ليقينهم أنه فدائى .
اقترب منا الضابط وهو يقول بصوت غليظ .
اجمعيهم كلهم أولا .
نادت أمى بصوتها .. أخوتى ومن ضمنهم غريب لم أره من قبل .
تصفح الضابط الوجوه جميعها .. كمن يقلب كتب إحدى الروايات الرخيصة ثم نظر لأمى لتحدد الزائد فينا .. فما كان منها إلا أنها أشارت إلى أحد أخوتى الصغار .. انتشله أحد الجنود الواقفين من بيننا ... وفى ثوان .
أرداه قتيلا رمياً بالرصاص .

وعرفت أن أمى ضحت بابنها لتبقى على حياة ذلك الفدائى التى كانت تخبئه فى دارنا .

أعطته العمر لساعات أخرى معدودة .

فهو هالك .. هالك هو الآخر ..

هالك بتلك القنبلة الموقوتة التى يخبئها فى طيات ثيابه فى قاع أمعائه المضطربة .

يقذف نفسه معها على أحد معسكراتهم الكثيرة .

الفدائى يقوم على دفنه فى صمت .

وفى منتصف الليل ذهب عنا ولم ينس أن يقول لأمى :

ــ سيدتى إن صادفكم جسدى ملقى هنا أو هناك فأرقدينى بجوار ابنك ، فأكثرما يعز على أن أدفن وحيداً بلا جوار ولا أصدقاء ..

ــ سيدتى أكره أن تكون نهايتى مثل حياتى وحيداً بلا دار.. دار حتى لوكانت تحت التراب .

رحل عنا وأحسست أن الفجر ما زال ينزف وهو يطلع بعينيه الدامعتين .. وسماؤنا بعيدة غاضبة ..

لم أكن أتصور أنه يمكن لأمى تلك المرأة الضعيفة .. التى تشبه شجرة فقدت كل أوراقها دفعة واحدة .. أن تكون كذلك .

ترخف عيناى على جسدها وتتوقف تائهة عن شعرها الأبيض وأتذكر شعر أقاع الذرة فى يافا ..

ولكن بعد أن حرقها الأعداء .

لقد أصبح شعرها خيوطا ملتصقة برأسها .

خيوطاً بلا معنى متدلية هنا وهناك على كتفيها .

دوما يخيل إلى أننى لو شددت خيوطها الملتصقة بعظم رأسها لانخلعت فى يدى ! . .

كأن شعرها بلاجذور ! . .

بلا أرض أنبتته ! . .

أمى بكل ضعفها وهزالها بكل ما جرى لها ولأحبائها ... أمى التى يخيل إلى أنها تجهض أكثر مما تتنفس ! . .

ضعفها شديد .

هزالها مقزز .

فلقد كانت مرفهة إلى أقصى حد حين كان لها مكان تحت سمائنا .

واليوم كل ما يحدث يستهلكها يمتصها ولا يبقى لنا غير الرماد .

وهل للرماد ؟

هل للمرأة التى تجهض أكثر مما تتنفس أن تفعل كل هذا ؟ .

أين أنا من كل ما تفعل ؟ .

إنها امرأة سلبت أكثر مما سلبت أنا .

امرأة أخذ منها كل شىء دفعة واحدة وبلا هوادة ولا رحمة .

وأنا أين أنا من كل هذا ؟

متفرجة رغم السحابة السوداء التى تظلل كل صورة أمامى .

محبة مازلت أفكر فى يوم عرس لنا وملابس بيضاء تعكس فرحتى فى عين ياسر .

بكاء أمى المكتوم لا أدرى ما الذى فعله بى !

ربما أكثر مما فعلته الأيام .

فهناك شىء انفجر بلا صوت فى أعماقى ! .

انفجار فتتنى ذرات صغيرة ثم عاد وشكلنى من جديد ليخلق منى ريم أخرى .

فريم الجديدة مات فيها كل إحساس بالحب والأساطير .

ماتت الأمانى والأحلام فى بيت يضمنى وياسر . . عواطفى سحقت كلها إلى درجة العدم على ذلك الذى استعبدتنى به أمى . .

مذبح التضحية فى أعلى مراتبها .

ربما أعلى من سمائنا الهاربة .

أسمع ضحكاتى الهستيرية فأخافها وأحتقر نفسى .

أندم . . أتنفس الندم .

فليتنى أستطيع حتى أن أكون . . حتى أداة فى يد أمى .

أداة توصل إلى غرض أسمى من مجرد انتظارى ولهفتى على ياسر .

أسمى من تلك الدموع التى تتساقط منى فى بلاهة .. تدعو لسخرية سوداء .

العيد غداً ولكن ماحاجتنا إلى العيد ! .

إحساس يطفح منى... أن عيدى كان بالأمس .

بالأمس القريب .

العيد الحقيقى كان حين اكتشفت حقيقة أمى ...

تلك المرأة الهزيلة .

المرأة التى يخيل للناظر إليها أنها تجهض أكثر مما تتنفس .

إن تلك المرأة الرائعة ... هى أمى أنا .

الفصل الرابع

سباق مع الجحيم

حزمة من الأسلاك الشائكة تفصل بين القدس المحتلة وقدسنا العربية .

المغتصبون مثل قوم قادرين على الخلق ... يحملون تحت شعيراته رأسهم الأشقر عقلاً لا يجارى ! .

فهم يخلقون كل يوم أنواعا جديدة ومبتكرة فى تعذيبنا .

تعذيبنا نحن بالذات ... أهل بيت بشير عرفات .

خاصة بعدما وجدوا فى صباح أحد الأيام الفدائى الذى ادعت أمى أنه ابنها ومن أهل البيت . بعد ما وجدوه هو الآخر منسوفا وحزام القنبلة الموقوتة ملتف حول بطنه .

يتسابقون فى تعذيبنا . . وتعذيب باقى شعبنا الجائع الملقى فى العراء والخيمات هنا وهناك . ، كجثث بلا وجوه ولا أهل .

ففى الفجر نفتح أعيننا على هطول وقع أقدامهم فوق أجسادنا .

أجساد إخوتى الصغار .

وأمى المنهكة .

يقذفون بهم بين أقدامهم كأنهم يلعبون الكرة ؟ .

كرة حية تنبض .

يغرسون أمى بمؤخرات بنادقهم وفى ظهرها المثقل ... فى نهدها . فى عينها .. فى كل مكان يمكن أن أتصوره ، وكل مكان لا يمكن أن أتصوره ؟

كانوا يعذبونها أمام عينى صباحا ومساء ولا يتوقفون إلا لعلهم أنها ماعادت تحس بهم البتة ...فبعد دقائق كانت رحمة الله أكبر وأقوى من كل ظلمهم ... بعد دقائق كانت تروح منى ومنهم فى غيبوبة طويلة . أنزف...أنزف روحى تحت قدمى ليدوسونى ويدوسوها وأنا أجرى من أمامهم . . أجرى بلا وجهة معينة أذهب إلى من هم أبعد منا فى كبد الصحراء . . أجرى ذاهبة إليهم فى خيامهم المهلهلة .

أصطدم بوجوههم التى لا تحمل أى معنى .

أصطدم بعيونهم الجامدة ... عيون لوجوه ميتة . . أتحسسهم وأصرخ .

أتحسس الطفل والرجل .. المرأة والكلب الضال .. لعلهم ينقذوننا مما نحن فيه .

فكانوا ينقلون أعينهم بين وجهى وبين أجسادهم الممزقة . . وكأن كل واحد منهم يقول لى :

— انظرى ريم لقد سلبنى العدو أحد أصابعى .

— انظرى ريم لقد فقأ العدو إحدى عينى وهأنذا أراك بعين واحدة

— انظرى ريم ماذا تبقى لى ! .. ساق واحدة .. وفوق هذا بدون قدم .

— انظرى ريم . . انظرى ريم .

— ريم ... ريم ... انظرى ريم . . .

— كلنا مستنا المأساة . .

— ريم والدتك أسعد حظا منا ! !

لاشيء أطهرَّ به جروح أخوتى إلا حفنة من الملح أذيبها فى الماء...

والماء فقط لأمى .. التى تصحو كالمخبولة تعد أولادها بلهفة ثكلى من دقيقة واحدة فقط .. اسأل نفسى لو كان والدى بيننا ورأى ما نحن فيه .. هل كان يمكن أن يتغير ذلك الجمود المطل من عينيه .. يتغير للحد الذى ينكفيء فيه على صدر أمى ويهزها .. محاولا أن يفيقها من هروبها ..

نعم كانت إغمـــاءة أمى نوعا من الهروب المختار حتى لاتحس ولا ترى ما يفعلونه بأولادها ..

هذا الرجل بنظرة عينيه يضرب فى أعماقى وتراً لايعرف الصمت ..

وسكت الرجال فقد نفد كل مالديهم من رصيد حقير من الضرب والقذف .. ولم ينسوا أن يسكبوا كل مالديهما من ماء على الأرض فى طريق خروجهم .. ! !

وكان على أن أحضر ماء من بقايا إحدى البيارات البعيدة . . .

أتقلب حيرى بين إخوتى وأمى فدائما يتركونهم فى حاجة إلى معجزة حتى يفيقوا ..

— وجب علينا الرحيل يا ريم فشـــد ما يحيرنى وحدتك مع أخوتك من بعدى ..

ـــ آه يا أماه وإلى أى مكان يمكن أن نرحل ؟

ـــ يا ريم إنهم لن يكفوا أيديهم عنا .. إلا بعد أن يعرفوا أين ياسر وخالد واسم الجماعة ومقرها وبأى الطرق يحصلون على السلاح .. و .. و ..

ـــ كفى .. كفى يا أماه دوما أحس أننا لسنا بمفردنا ..

ـــ أى ابنتى شعورك حقيقة لاريب فيها فنحن لسنا وحدنا فى كفاحنا أمامهم .. ولسنا وحدنا الصامدين قبالتهم .. ولكن شعبا بأكله يفقد يومياً بعضاً من ذاته .. ومع هذا كله إصرار ..

وأين نحن يا ريم من ذلك الفدائى الذى كان لدينا بالأمس .. أين نحن من كفاحه ..

ثم قالت :

ـــ إن أشد ما يثير عجبى وتساؤلى أنهم إلى الآن لم يحاولوا أن يقتربوا منك لم يحاولوا أن يمسوك بسوء . .

سكتت أمى وهى تسمع الأقدام التى نعرفها جميعاً تقترب من عتبة دارنا . .

الرعب يتدفق أنهاراً من عيون إخوتى . . وقد ألقوا بأنفسهم دفعة واحدة فى فراشى . .

أطفالنا ينبضون رعباً وهلعاً . .

وقع الأقدام المعروفة يقترب فى قسوة وإصرار . . وأنا أجاهد لأبدو لامبالية أمام أخوتى الصغار الذين استماتت أيديهم فى الإمساك

بتلابيى .. أجسادهم تنبض رعباً .. وعروقهم تنتفض ذعراً فى أعينهم وجاء يائس .. يستجدون بعضاً من الرحمة .. ينظرون إلى بكل هذا الاستجداء كأنه يمكننى أن أبعد عنهم هذا العذاب ..

كنت أكره النظر إلى عيونهم هذه .. ألف ذراعى حولهم جميعاً ألصقهم بجسدى إلى درجة الألم ، محاولة بذلك أن أعطيهم كل مالدى ..

وماذا لدى أكثر من هذا .. ؟

وأخيراً انفتح الباب بركلة واحدة وأحسست هواء الشتاء القارص يلسع جنبى ..

بقيت مكانى مفترشة الأرض محتضنة الصغار بين ذراعى وجلست أمى القرفصاء ودفنت رأسها بين ركبتيها فلم تكن لها القدرة على من رأسها .

انهالوا علينا بالأسئلة والاستفسارات من جديد ، هددوا .. وتوعدوا .. مئات المرات ولكنهم لم يحصلوا منا على جواب شاف لهم .. وفوجئنا بضحكات عالية من أحد العساكر . كمن يكون مسه شىء من الجنون ثم قال لى بعربية واضحة :

— إلى يومنا هذا لم أحاول أن أمسك بسوء يافتاة .. ولكن الغد يحمل لك مفاجأة .. !

ثم استدار عائداً هو والباقون على عجل .. أحسست بقلبى يهوى فى أخمص قدمى ..

أسمع دقاته عالية مجنونة .. الصور تنقلب أمام عينى ، أرضنا ومن عليها معلقة فى السماء ...

والسماء تهوى بسرعة مخيفة على رأسى الملتهب وكأن اليوم هو بدء الخليقة .

تهديدهم لى له طعم الحريق وخوفى كل خوفى أن يقدموا لنا رأس ياسر ليثأروا من صمتنا الطويل .

مسهدة إلى درجة الألم ...

مسهدة بالرغم منى كأننى لم أعرف شيئاً اسمه النوم من قبل ..

البرد شديد يعوى عواء ذئبة فقدت فريستها ..

وأنا مسهدة إلى درجة الألم ..

عيناى مصلوبتان إلى السقف وأفكر فى الغد الذى هددنى به ..

وأخيراً جئتنا يا غد .. تحمل لنا من ألوان المهانة أصنافا .. حين هبطوا علينا كقدر أغبر لايعرف ماذا يريد تماما ..

فهم دائما هكذا ..

لايعرفون تماما ماذا يريدون بالضبط ..

فهم حائرون دائما بين ما يختاون لنا .

أيختارون لنا الطرد فى العراء ؟

أيختارون لنا القتل أمام الصغار ؟

أم قتل الصغار أمامنا ؟

أيأخذون ديارنا الحبيبة ؟ أم يأخذون بعضا من أجسادنا وهم

يذيقوننا ألوانا من العذاب . . ولكنهم دائما وأبداً يختارون لنا فى النهاية كل هذا فى آن واحد . . ونحن نرضى بكل هذا وأكثر من هذا إلا أن نخضع لهم ونستسلم فى خنوع نحن لم نعرفه من قبل ولن نعرفه على طول الدهر . فحين هبطوا علينا كقدر أرعن . ساقونى أمامهم بين ضحكاتهم الساخرة ونظراتهم اللاذعة . . ساقونى أمامهم دون أن أودع أخوتى الصغار ، دون أن أسرق ثوانى أرتمى فيها فى صدر أمى المرتعش . . وفى الطريق إلى العربة التى أقلتنى إلى أحد مقراتهم خلف الأسلاك الشائكة . . أحسست الشبه الكبير بينى وبين مجموعة الحيوانات التى كانت تساق من تحت نافذة دارنا فى يافا إلى المذبح كل صباح ...

وأخيراً وصلنا إلى أحد شوارع قدسهم واستطعت أن أحدد بالتقريب أننا قريبون من بيت خالتى . .

أذكر أنه كان لشكل الشوارع النظيفة والمبانى العالية والبيارات المتناثرة وقع مفرح إلى درجة الألم فى قلبى .

فهذه صور من القديم . . قديم حياتنا . .

حين كانت لنا حياة ..

حين كانت لنا مدينة بها بيارات

ابتسم قلبى إلى درجة البكاء ونزلت الدموع من عينى .. كثيرة لتحجب عنى رؤية جمال المدينة وتحل محلها حياتنا فى العراء ومنازلنا التى تذكرنى بحظائر فى القرن السابع عشر ..

أدخلونى فى حجرة مؤثثة .. فتهيبت من الجلوس فيها .. قادونى إلى دورة المياه ..

وهنا تذكرت أننا نحيا من سنوات دون شبكة مياه أو أنابيب للفضلات ...

فديارنا فى الأطراف ومن صنع أيدينا . عبارة عن أربعة جدران مسقوفة فى بعض الأحيان ...

ولكن بالرغم من إمكانياتهم كانت هناك رائحة تزكم الأنوف رائحة نتنة تزكم أنفى الصغير ...

فتحسست أنفى بيدى وإذا بى أفاجأ بمن يضع يده على كتفى ويقول لى ...

لماذا تتحسسين أنفك بضيق ياريم ؟

تلفت مذعورة وأنا أهرب بكتفى من تلك اليد الموضوعة عليها .. كان ضابطاً صغيراً عرفته من بذلته العسكرية له أنف كبير لايتناسب مع حجم جسده وقد خضب شعره بالكثير من أصناف الزيوت .. !

لست أدرى ما الذى أصابنى،ولكنى أحسست بالرائحة النتنة تقوى وتقوى فسددت أنفى بيدى ...

أثارته فعلتى فعاد يسألنى من جديد . ولم أرد عليه ... ولكنى أبقيت يدى أسد بها أنفى ...

فهوى بيده على وجهى فى جنون وعاد يسألنى نفس السؤال ؟

— أجيبى أيتها الحقيرة لماذا تسدين أنفك ؟

فقلت على الفور وبأسرع مما كان يتصور ...

— لأنى أشم رائحة نتنة ..

فقال ساخراً ..

— الرائحة النتنة هناك فى حظائركم و ...

لم أدعه يكمل كلامه وقلت له :

— إنى أشم رائحة السرقة تفوح من كل ركن فى هذا المكان وكل شىء هنا مسروق منا .. هذه ديارنا .. و ..

لم يمهلنى ثوان أخرى أتكلم فيها وعاد يهوى على صدغى بكلتا يديه .. وكان أكثر مايثير عجبي أن له كفا قوية تؤلمنى .. تؤلمنى جداً .. فلقد أحسست بجذور أسنانى وكأنها تتكسر ..

نعم يده تؤلم بالرغم من أنها تذكرنى بيد إحدى صديقات والدتى أيام كنا فى يافا ..

فابتسمت ..

عند هذا الحد انفتح الباب ودخل ضابط آخر أكبر رتبة وتظاهر بأنه يعنف زميله بغضب ثم أصر على أن أجلس على أحد الكراسى .

دق الجرس بيديه فدخل خادم على ما أعتقد يحمل صينية عليها ألوان من الفطائر وبعض المشروبات الساخنة ..

وضع الضابط أمامى أطباق الفطائر والمشروبات ثم تركنى وتشاغل بقراءة بعض الأوراق التى أمامه وأبقى الضابط الذى صفعنى واقفاً .

ومرت الساعات بطيئة كأنى أثقل عليها بكل متاعى ..

وأنا لم أقرب شيئاً .. والضابط ما زال متظاهر بالكتابة والقراءة وفجأة دق الجرس مرة أخرى فدخل رجل آخر يحمل بين يديه صندوقاً

عرفت أنه مملوء بشيء يؤكل .. ثم رفع الضابط إلى عينيه وقال :

ـــ أعتقد أن لك إخوة صغار تخذى هذه لهم ..

ولكنى أبقيت يده معلقة هكذا فى الهواء وهو حامل الصندوق ..

فلم أرض أن أمد يدى لآخذ شيئاً . مع تصورى لعيون إخوتى .. آه

لو أنها وقعت على هذا الصندوق .

ولكن لانهم فإن إخوتى لايعرفون الحلوى ..

لأنهم لا يعرفون أى شيء له مذاق العسل ! .

اقترب الضابط منى ومازال ممسكا بالصندوق يقدمه لى .. قلت :

ـــ نحن لانشترى بالفتات ..

قال على الفور ..

ـــ إذن بكم تشترين ريم . ندفع لك الشيء الذى لايمكن أن تقولى

إنه فتات ..

أكثر من ساعة حسب قول الضابط ونحن نتكلم ونتكلم ..

يتهددوننى .. ويتوعدوننى ..

وأنا فى إصرارى . وتصميمى لا أقبل أى شيء على الإطلاق ..

الفصل الخامس

عذراء وذئاب

نوحى ياسماء .. نوحى ياسماء .

احترقى يا شهب وأحرقيهم أو أحرقينى . ولكن ضعى حداً لأحد منا .

نوحى ياسماء فأنا أبصر العالم مقلوباً ضدين وقد انطبقت السماء على الأرض فى موكب رهيب مخيف . أنا أرى السماء تنطبق على الأرض لتثقل على صدرها لتشقها ثم تتركها معلقة بين كفى القدر .

ولقد احتملت كل قدر أرادوه لنا .. ولكنى لا أحتمل . ولن أحتمل أن يفعلوا بى ماينوون فعله .

لقد رضعت منذ مولدى معنى الشرف . شرف الفتاة وأى فتاة فتاة من أرض هى مهبط الأديان . فتاة عربية لاتعرف شيئاً قدر عرفانها لما تحمله كلمة شرف من أبعاد ومعان .

أيودون أن يسلبونى إياه ؟ ! ..

الموت .. أقل ثمن يمكن أن أدفعه دفاعا عن حق اللبن الذى رضعته على هذه الأرض صغيرة فأنا لم أرضع غير معانى الشرف .

وحين يئسوا من أن يجعلونى أدلهم على مكان ياسر ومن معه أو أقول لهم اسم الجماعة السرية التى ينتمون إليها قرروا أن ينتقموا منا .

بعد انتظار فى مكتب الضابط استمر ما يقرب من عشر ساعات . ساقونى مرة أخرى إلى حجرة جانبية ولم أشعر إلا والضابط الذى كان يقدم لى الحلوى ينهال على صفعا وركلاً كانت الدماء تندفع من كل جزء من جسدى المتعب والصور تهتز أمام عينى وهو يحاول أن يخلع عنى أسمالى فى إصرار .

كانت مقاومتى له مستميتة مؤمنة .. حتى تعب وأبصرت العرق غزيراً يندى جسده الضخم . ولكنه حين صفق بكفيه لم يكن لى خيار .

فقد تعاونت عصبة من رجالهم فى الإمساك بى كذبيحة تقاوم بلا فائدة تقديم رقبتها لسكين سفاح .

دقيقة صمت كانت لها أبعاد يوم بعث الخليقة من جديد .. شىء مايحدث فى تجويف عقلى المرهق .. إحساس أقرب ما يكون إلى شاة فصل رأسها عن جسدها ولكن بقى النبض فيها ! .

مذهولة .. مذهولة .

انظر بعينين لجسمى الممدد وكأن شعاع الرؤية آت من رأس بعيد .. بعيد جداً عن هذا الجسد المشوه .

لحظات انعدم فيها كيانى من الوجود .

ماتت أصداء صرخات نفسى وأنا أعى تدريجياً مافعلوه بى .

الواحد تلو الآخر .. أقرب مايكونون إلى حيوانات مسعورة . اليقين يعود إلى تدريجياً .. فتأكدت أن بكائى وعويلى سوف

يثلج صدورهم .

يشعرهم بالراحة والانتصار .. انتصار عصبة من الرجال على فتاة عزلاء ! .

فلم أرض أن أعطيهم موقفاً يتفكهون به علينا . فحبست حتى أصداء صرخاتى الكثيرة ! .

وجففت نزف عيونى .. بكل ما لدى من طاقة وقوة .

فكم أكره العويل ..

عويل نسائنا فى جوف الليل .

وعويل أطفالنا الجياع .

حتى مدينتنا كنت أسمع لها عويلا له صدى موجع فى نفسى .

ولكنى كنت عبثاً أقاوم رغبة التحدث إليهم بكل ما فى قلبى من نار .. بكل ما فى جسدى من تقزز .

ولكنه كان المحال . فمحال أن أسكت ولو كلفنى هذا البقية الباقية من نبضات قلبى التى أسمعها تتردى متخبطة فى داخلى القاتم

أبذل مجهوداً كبيراً لأسيطر على عضلات لسانى ، وحين رأونى أحاول الكلام اقتربوا منى جميعاً وكلهم ثقة أننى سوف أبوح بمكان ياسر وخالد ومن معهما .

جسدى مكوم على أرض الحجرة . والضباط منكفئون بوجوههم يحدقون فى وجهى .

ينتظرون أن أتكلم . بلهفة لايمكن وصفها .. أقلب عينى فى كل الوجوه .. كلهم لهم وجه واحد لايتغير ..

وجه فى أغوار عقلى .. فى عالم النسيان ولكنى تذكرته الآن .. أن لهم وجه ذئب . . كالذى أتى به يوماً ما ياسر ونحن صغار .. جاء يحمله من رجليه وخيط من الدم الرفيع ينزلق من فه . . أذكر لقد تجمع أطفال حينا لرؤية الذئب . . وفى آخر النهار . قمنا على دفنه فرحين .

الوجوه تقترب منى وأنا ما زلت مكومة على أرض الحجرة .

— قطع ذكرياتى أحدهم قائلا :

— تكلمى .. تكلمى ياريم . أما يكفيك ما ضاع منك ؟ .

ساخراً قال :

— أنتم معشر الشرقيين تهتمون بنقطة الشرف هذه إلى حدالهوس .

لم أشأ أن أرى من المتكلم فيهم . فكلهم متشابهون لهم رأس ذئب وجسد رجل .

عاد أحد الذئاب يلح :

— تكلمى ريم تكلمى .

فى الحقيقة كانت رغبتى فى الكلام إليهم لا تقاوم ولكنى أحاول عبثا السيطرة على نفسى وأخيراً قلت :

— ياسر دفن الذئب يوما ما ...

قالوا مندهشين :

— لا يهمنا هذا الهراء أين هم ؟

— لا بد أنهم يعملون على دفن الذئب .

فقال أحدهم ...

— يبدو أنها أصيبت بمس من الجنون .

فقلت على الفور وقد استنكرت أن يظنوا أنى لا أعى ما أقول فقلت :

— أنا فى كامل وعى ويقظتى ولكنكم تشبهون وجه الذئب وأنتم تحدقون لى وجهى هكذا .

متأففاً متوعداً قال أحدهم :

— أين ياسر و...و...و...

وهل يمكن أن أقول للذئاب أين الفريسة ؟

مرة أخرى ساقونى بين سخطهم ووعيدهم إلى حجرة ثالثة وعلقونى من يدى ... حمدت الله لأن عذاب الجسد أخف كثيراً من تعذيبهم السابق ...!!

بقيت معلقة هكذا فترة طويلة من الوقت كنت أوقن خلالها أننى بلا ساقين من فرط عدم إحساسى بهذا الجزء من جسدى بفعل وضعى المعلق ... ثقلت رأسى على كتفى وجذوتان من الشرر تخرجان من عينى .

أحمد الله .. أحمد الله بصدق . فأنا لم أكن أصدق فى شكرى لله من هذه اللحظات ، أحمد الله أن والدتى ليست موجودة معى ، وإلا كانت قضت نحبها من فرط حزنها على ما فقدت .

ضحكات كثيرة ... ضحكات كثيرة جداً ولكن كان لها فى نفسى صدى عواء ذئب جريح : !!

هكذا كنت أسمع ضحكاتهم الجريحة .

جريحة من شدة إيماننا ... فلقد طعنتهم بخنجر مسموم وأنا صامدة أمام تعذيبهم .

فقوة إصرارنا ... تخيفهم وتقلقهم . تجعل أيامهم سـواء بلون أسلحتهم .

جريت كالمخبولة بعد أن تركونى أبعد من الأسلاك الشائكة بحوالى مائتى متر .

خط الأسلاك الذى يقسم مدينتنا جزأين .

جريت أتلفت خلفى وما زالت ضحكاتهم تملأ جوانب الصحراء . وقرب الأسلاك التى كنت أنوى تخطيها أبصرت طفـلا منكفئاً على الأسلاك ولا حراك فيه ... طفل صغير لا يتجاوز عمره ست سنوات. طفل فى عمر إخوتى ...

مشيت إليه وأنا أنوى أن أحمله بعيداً عن الأسلاك — تحسست بأصابعى ظهره ... وصوت عواء الذئب يعلو فى تجاويف عقلى ...

أشم رائحة الذئب وراء رقدة الطفل منكفئاً على وجهه والأسلاك الشائكة منغرسة فى بطنه الصغير .

أعى أسماله البالية ...

فمثل هذه الأسمال لا تـكون إلا لمن هم منا.

فمثل هذه الأسمال لا تـكون إلا لـ

وبسرعة خاطفة أدرت وجهه ناحيتى . فإذا هو وجه أخى و ...

مات أخى وهو يحاول أن يعبر الأسلاك للحاق بى ...

مات ممسكا بإحدى يديه بعضا من الحصى الكبير ... كان يقول دائما وهو يجمعه :

ــ أنا أجمع الحصى لأضرب به المغتصبين حتى لا يعذبوا أمي كل يوم ...

حزمة من الأسلاك ...

تفصل بين الجحيم والأمان ...

بصمت لا مفر لي من غيره ... أحمل جسد أخي بين ذراعي . كان ما زال ينزف من أثر تلك الرصاصات التي دسها العدو في بطنه جزاء محاولته البريئة في أن يلحق بي ... بأصابعي كنت أحاول أن أسد تلك الثقوب النازفة .

بصمت لا خيار لي في اختيار غيره ... كنت أسير في اتجاه بيتنا .

موكبي رهيب إلى درجة الجزع ...

قرب الدار كنت أحس أن في الداخل مقصلة لا بد أن أتركها تنطبق على رقبة أمي في قسوه .

الوقت ما زال فجرآ وأنا ما زلت أجر في قدمي محاولة أن أشق طريقي إلى أمي .

الطريق مقبره لا نهاية لها .

مقبرة مظلمة تمتد تحت قدمي المتعبتين.وما زال أخي موضوعا بين يدي ...

البيت في البعد كتابوت بلا مكان ... أنقل نظري بينه وبين أخي المتروك في يدي ...

وتتجسد صورة أخى فى عينى أحس لجسده ملمساً غريباً ...
وأرى بين ساقيه شيئا لم أره من قبل ! !
أرى له ذيلا ...

تتجسد الصورة أكثر وأكثر وأعى حقيقة جديدة ... وهى أننى أرى لأخى جسد فأر ضعيف ! !
وأدير وجهى عبر الأسلاك ... ! !
فأرى مدينتهم مصيدة كبيرة . . ! !
ولـكنهم لايقدرون إلا على الإيقاع بالجرذان الصغيرة ... ومتى كان صائد الجرذان بطلا مغواراً ؟
متى كان لصائد الجرذان صفحة مشرقة فى تاريخ أمته ؟
بيتنا تابوت ضائع ... وعدد من بقايا نسائنا يتحلقن حول أمى فى خشوع وأمى بضعفها كقطة نزعوا عنها جلدها حية .

أمى تلك المرأة الضعيفة تغض النظر عن الجسد الموجود بين أصابعى . .
نظراتها تحرقنى بسيل من سهام الاستفسارات ... أحس عينيها وقد بدا فيها ظمأ شره غريب ... ظمأ إلى الاطمئنان علىّ . .

تدحرجت عيناها النافذتان فوق جسدى النحيل . وتوقفت عند صدرى مستفسرة ... أحسس بعينيها جذوة من نار تلهب نفسى بسياط الحقيقة التى صرت فيها .

فى ثوان تفهم كل شىء . تجرى كقطة نزعوا عنها جلدها حية .
تجرى تود عبور الأسلاك الشائكة ...

لتثأر ... تثأر لابنتها من إسرائيلى الأمس ! ! وهنا دقت فى رأسى كطرقات ناقوس كنيسة تعبت من استجداء السلام ـ كلمات أحدهم :

ــ أنتم يا معشر العرب تقيمون كلمة الشرف بميزان الذهب .

ما زالت تجرى ... تجرى ... تود عبور الأسلاك .

ولـكنى رحت فى غيبوبة لا أعرف مداها .

الفصل السادس

آت من بعيد

لم يكن هناك بد من الهجرة...

نهجر دارنا البسيطة بعد أن هجرونا من ديارنا الأنيقة ... فى يافا الحبيبة .

نهجر الأرض التى ذقنا مرها فقط !

بعد أن استكثروا علينا حلوها ... أو بعضاً من حلوها الفياض. فأنا أعرف أرضنا . أرضنا طيبة كريمة ... أرضنا مهبط الأديان . وعز علىّ أن نصبح مرة أخرى مضطرين إلى هجرة ديارنا ... حتى ولو كانت تشبه الحظائر .

عز على هذا الواقع الذى صار جزءاً من حياتنا . فنحن هكذا مضطرون إلى التخلى عن كل شىء تحت تأثير ضغوطهم المفزعة وقلوبهم التى لم يعبر بها يوم ولو بقية قليلة من إحساس بالإنسانية المفقودة . بقيمة الإنسان من حيث هو إنسان . الساعة تلو الساعة . واليوم يتلو الآخر وأنا أحس أننى كلما سرت فأنا أسير على جثث لأطفالنا وأطفال الآخرين وأننى أتنفس رمالا ممزوجة بدماء حمراء والرمال قاسية وهى تمرق من حلقى إلى رئتى . ورائحة الدم المسفوك تدفعنى أن أتقيأ البقية الباقية من عمرى .

وأمى من يومها لاذت بالصمت الطويل ... فلم تكن تتفوه بأى عبارة ... وكذلك لم تكن تبكى حتى فى سريرتها ... صورتها تقترب من صورة والدى قبـــل أن يرحل عنا ... فالعيون جامدة لا تحمل ولو فتات معنى ... والشىء الوحيد الذى تحركت له عينها ... هو ريم حينما أمر أمامها لأمر أو آخر تتابعنى بعينها الصامتتين ... وبعد مدة لاحظت أن بقيـــة أخوتى الثلاث ... ينظرون إلى بطريقة أمى ... نظراتهم تضايقنى تجردنى حتى من أسمالى ثم اتكتشف ماحدث لى .

فى هذه اللحظة أحس نفسى حزمة من الأسلاك يحاول شخص ماأن يعتصرها يلفها ليصنع منها حبلا يربط به نعجته فى أقرب جذع شجرة . وأنا أكره أن أكون قريبة الشبه من أى الحيوانات . ولكنهم دائماً يصرون أننا حيوانات .

لا إحساس لنا ... ! ولا رغبات لنا ... ولا إرادة لنا ... وكان لابد لنا من الفرار تحت حماية الليل .

فالليل فى القدس كثير العطاء ... الطبيعة بكل صخبها أكثر حنانا وحباً للسلام منهم . وكان علينا أن نمشى سيراً على الأقدام طوال الليل... والبرد شديد ... أكثر شدة بالنسبة لصغارنا العرايا . وكان أكثر ما أتمناه أن أبصر أى أثر لإنسان فى طريقنا . فلقد كان الإسرائيليون يقولون لى حينما كانوا يمطروننا بوابل من الأسئلة .

ـــ هيا يافتاة . فلسطين لم تعد لكم . اذهبوا إلى باقى جيرانكم اللاجئين . هيا إلى الضفة الأخرى .

ولكنى كنت متمسكة أشد التمسك بهذا البيت البسيط بمجموعة

تلك اللبنات التى تؤلف معنى دارنا ... أتبادل حمل إخوتى مع أمى التى مازالت مصرة على صمتها الموجع .

فى عينها صمت وحب ... حب لتلك الأرض التى لم يفلح العدو أن ينزع وترها من قلبها ... الساعات تمر كبيرة تتسع لمولد خليقة من جديد ... لأننا لانستطيع أن نسير هكذا بسلام ... فلقد كان على أن أتحسس الأرض بيدى وقدمى خوفاً من الألغام ... قبل أن تسير عليها أمى وإخوتى الصغار كلما أمكننى رؤية أية ارتفاع فى الأرض كان يتحتم علينا أن نتلافاه بمنتهى الحذر ... وبدت لنا مع خيوط الفجر الدامع بعض المرتفعات التى عرفنا فيها شكل الخيام ... بعض من الطمأنينة سرى فى حواسى المصلوبة ... وسمعت صوتاً لأحدهم يؤذن للفجر ... زمن طويل مضى وأنا لم أسمع هذا الدعاء من قبل ... ألقت أمى بجسدها على الأرض بينما كان ساكنوا الخيام يهرعون خارجها يتيممون ثم يصطفون خلف واحد فيهم استعداداً للصلاة .

الأماكن تتغير والصلاة معنى لا يتغير ... فنى ماضينا البعيد كنا نشكر الله ... واليوم كذلك نشكره على الرغم من كل هذا ... فنحن لانعرف إلا شكره على كل شىء .

لم يكن لصلاتهم صدى الهمس فى قلبى الصغير ... بل كان صدى صوت صرخات أمة ... صرخات شعب سلب منه كل شىء دفعة واحدة .

كمحاولة له أن يقف فوق سطح بركان ...
بركان لايعرف إلا الثورة .

صوتهم يتعالى ويتعالى ... وقدر كبير من الثقة واليقين بأن أصواتهم ... صرخاتهم ... وحتى همسهم مس عنان السماء ، واستبدل بلون الزرقة فيها لون الدم المسفوك . لون أحبـــائنا ... أجدادنا ... أولادنا .

لون ماضينا وحاضرنا .

صوت دعائهم الصـادر من أغور أعماقهم الجريحة ... أعماقهم التى لا تعرف اليأس !! نفوسهم التى أحالت زرقة السماء إلى الحمرة ... كل هذا جعلنى أحس مزاق حياتنا السابقة ، نسيم حياة الطفولة ، ملأ روحى من جديد ، أستنشقه بقوة ، بجوع ، بجوعى الأسود ، إلىدارنا ، إلى أرضنا ، إلى صدر والدى الرحب... لـكم سيحلو لى أن أنام ملء جفنى بين هذه الوجوه وتلك النفوس ... نفوس ولدت فى مهبط الأديان . . أرضنا السليبة الغالية .

مازال أصغر أخوتى على كتفى نائماً ، فهممت أن أنزله حين قفز دفعة واحدة ، رميته بابتسامة مبتعدة عنه . لأطمئن على أمى التىكانت راقدة على مقربة منا .

وفجأة سمعت دوياً هائلا ... وكأن الأرض تتطاير قطعـــاً من السماء و ... و ...

لغم ... لغم ...

لقـد انفجر لغم تحت وقع قدمى أخى الصغير الذى قفز من على كتفى ، وتركته مبتسمة وكأنى أودعه الوداع الأخير .

أشلاء طفل له من العمر ثلاث سنوات ، هكذا حكوا عليه وكأن

لا حق لطفولة غير طفولتهم المتطفلة أن تعيش على الأرض .

اعتدنا لملمة الأشلاء .

أشلاء الأجساد .

وأشلاء النفوس .

والدتى يا لها من امرأة ! لم تتفوه بأى كلمة أو حتى أى صرخة ، أى زفرة منذ أن اعتدوا على فى القدس يبدو أنها فقدت الإحساس بالتألم من أجل أى شىء ، لأنها قاست الألم الأكبر حين أفقدونى كل شىء ، وخرجت بلا شىء إلا تلك الحسرة التى تغشى نظراتها وتغير من تقاطيع وجهها ، حسرة واضحة مرئية .

ونحن صغار كانت خالتى تقول لى :

— إن النظر فى المرآة كثيراً يسلب الفتاة شكلها .

حين كان لخالتى بيت خلف الأسلاك الشائكة ، بيت فى أحسن أحياء القدس ...

واشتهيت طفولتى مرة أخرى .. حواديت خالتى .. حنين إلى البيت ...

خيالات صبيانية ، فى أمنية لى أعثر فيها يوماً على تلك المرآة التى إذا نظرت فيها أمى أخذت عنها تلك الحسرة الواضحة التى تغلف تقاطيع وجهها المتداعية ، زادنا ، كل زادنا .. تلك الوجوه التى أستطيع بكل سهولة ويسر أن أوقن أنه مازال للحب والتعاطف والإنسانية مكان تحت السماء ، وأن الأعداء إذا كانوا قد طمسوا معالم حياتنا وبلادنا

فلن يستطيعوا أن ينسفوا معانى الطهر والخير والحب من نفوسنا ليال بطولها كانت فيها نساؤنا يتحلقن حول أمى ، واحدة تسقيها والأخرى تصنع لها من لاشىء مكاناً تنام فيه ، كلهم كانوا يتبرعون بأسمالهم ابتغاء وسادة لأمى ، اقتسمنا معهم الفتات ... أصغر فتات الطعام ... ولن أنسى تلك المرأة صديقة والدتى فى يافا كان لها بيارة على مقربة منا وكانت تستشير والدى فى كثير من أمور إدارة زراعتها . هذه المرأة كانت إحدى النسوة اللاتى قابلتهن حين وصلنا ، لقد فقدت سمعها تماماً من شدة ضرباتهم ، وضعف بصرها فلم تعرفنا أول الأمر ولكنى عرفتها ، وللوهلة الأولى بذلت مجهوداً كبيراً لكى أسمعها قصة والدى التى كانت دائمة السؤال عنه .. وفى صبيحة وصولنا لم يكن لدينا شىء نقتات به . شىء أسد به رمق الصغار ، أو من بقى من إخوتى الصغار .

ولدان لم يتعديا العاشرة ! .

فى صبيحة اليوم التالى ، وكان الفجر ما زال ينزف بغزارة سمعت حفيف وقع أقدام ، وكنت يقظى بفعل أحداث كثيرة ، أنستنى أن هناك وقتاً لا يمكن أن أنفعل فيه بغير الدموع والضيق، أنفعل فيه إلى حد السكون فأنام .. قمت واقفة وأزحت باب الخيمة التى استضافونا فيها ووقفت أنظر ...

لمحت صديقة والدتى التى قابلتها هنا ، الست أمينة وهى آتية من بعيد وقد حرصت على حفنة دقيق فى يدها ، كانت الريح عاصفة بعض

الشيء والست أمينة تتحسس طريقها إلينا والهواء الشديد يلعق طبقات من الدقيق الذى فى يدها ويطير بعيداً ، فتصنع من يدها الثانية درعاً واقياً لتحجب به الهواء .. كان منظرها وهى تكافح الهواء مستميتة من أجل حفنة دقيق ، لأجل طفلين يرقدان فى جوار بقايا أم كانت صديقة لها ، منظرها هكذا جعلنى أتساءل مئات المرات : —

— وهل يمكن أن ينتظر من ملاك آت لتوه من السماء أن يفعل أكثر مما تفعله هذه المرأة ؟ على قدر فرحتى بوجودنا بين أناس كلمة الضمير لها وزن كبير عندهم ... فهنا للشرف والحق والعدل والتضحية ، لهذه المعانى قيمة كبرى .. فهى توزن بميزان الذهب هكذا نحن العرب كما قال لى الضابط الإسرائيلى وهو يتوعدنى فى اليوم المشئوم ، أن هذه المعانى تخلق لحياتنا حتى ونحن فى العراء معنى شفافا .

فكيف كان يتهكم منى ومنا معشر العرب ؟

على قدر سعادتى بكونى إحدى الشرقيات العربيـــات على قدر حسرتى لما نحن فيه .. فكم من صرخات كانت تمزق سكون الليل وكل ليل ، فالمكان على ما يبدو مملوء بالألغام والأطفال يبحثون عن أى شيء يؤكل ، حتى ولو كان جذراً لنباتات شائكة ، فكلما عضهم الجوع توغلوا بأصابعهم الطاهرة فى قلب الرمال بحثا عن أى شيء ، وتكون النتيجة انفجار أحد الألغام المدفونة فى ترقب أكيد ، ونعود مرة أخرى للملمة الأشلاء !!

أشلاء الأطفال فى أحجار مختلفة !! وبعضهم كان يموت من الجوع

تنتفخ بطونهم ولا يعون من حولهم أحداً . كل هذا أمام أعين أمهاتهم وأخواتهم . والبعض الآخر كانت الامراض الجلدية بالذات تقتلهم تدريجيا وببطء شديد مع ترك أجسادهم الصغيرة البريئة مشوهة إلى درجة الجزع .

حساسيتى نحو معرفة الفدائيين تنمو بسرعة . كانوا يأتون من عمان متسللين يستريحون عندنا ليواصلوا جهادهم ليلا . أو يعودوا القهقرى إذا وجدوا الطريق غير آمن ، على أن يبدءوا فى اليوم التالى من جديد . وفى أحيان كثيرة كانوا يأتون لنا بالطعام وبعض العقاقير البسيطه نجمعها ثم نقوم أنا والباقون بتوزيعها حسب احتياج كل أسرة ، هكذا كنا كل حسب احتيـــاجه أنسب ما يمكن تطبيقه فى مجتمعنا هذا .

وكان الشيخ مروان بن على الذى يؤم الناس لصلاة الفجر ثم يدعو والجمع يرد عليه من فى قوة خاشعة الدعاء المفضل لفلسطين الحبيبة ثم يعود ليدعو والجمع يرد عليه أكثر قوة بأن يحمى ويعيد إلينا سالما أحد فدائيينا الذين رحلوا مع أول خيوط الليل لأداء جهادهم فى سبيل الله. وفى يوم تصادف أن مرض أحد الأطفال مع مرض هذا الشيخ الفاضل انتابت الاثنين حالة غريبة وكأن أمعـــاءهما تغلى وتفور فى معركة متكافئة لاتنتهى .

لم يكن لدينا أكثر من ثلاث حبات مهدئة لمثل هذه الحالة ، فبعد أن أخذ الألم كل مأخذ من الشيخ والطفل وابتدأ الثانى يبدو الإعياء

الشديد عليه أمرنى أن أسقيه حبه . وحين هممت أن أعطيه الأخرى رفض قائلا :

— سأصبر حتى آخر احتمالى ... فإن حياتى لاتهم فأنا هرم لن أستطيع أن أحمل سلاحاً أسترد به أرضنا . ولكن غازى حياته لها ثمن كبير جداً .. فالأمل فيه . بقى يعانى صنوفا من الآلام المبرحة رافضاً أن يبتلع حتى نصف قرص من القرصين المتبقيين لدى . كان كل همه أن يسأل كلما استطاع ذلك عن غازى . وفجأة استيقظ الأخير على صراخ من جديد ، فأعطيته القرص فعاد لإغفاءته من جديد ... إذن لقد بقى قرص واحد . قرص حائر بين الشيخ والطفل . والشيخ مازال فى إصراره على الرفض وكل همه السؤال عن غازى .. إلى أن اشتدت به الحالة فأشار على بالاقتراب منه فوضعت أذنى على فمه فأسر إلى بأنه على يقين من أن هـذه آخر لحظاته بالحياة ولقد كانت له مهمة لابد أن يقوم بها . قال .

— أتذكرين يامريم الفدائى الذى رحل عنا قبل أن يصيبنى هذا المرض بدقائق فقط . رددت على الفور وقد تملكتنى مرارة خشية أن يودعنا هذا الرجل الذى كان يملأ الدنيا بصوته وهو يؤذن للفجر كل يوم .. قلت :

— نعم ياعم مروان هذا الشاب الذى بعث بسلام خالد لك وقال إن ياسر يتقدم فى دراسته .

— نعم يا ابنتى إن هذا الشاب ذهب ولكنه سينتظر منى إشارة

قبل طلوع الفجر تماماً و... ثم قال بصعوبة كبيرة والألم مازال يمزق أحشاءه المتداعية .

— إشارة ضوئية ليستطيع أن يعود مع باقى رفاقه و... اذهبي... ريم دون ضجيج ... اذهبي لأكون راضيا فى رقدتى ولا تنسى أن تسألى غازى ...

رباه... رباه أيمكن أن يكون طفل كغازى بكل هذا القدر من التجاوب الوطنى وعرفت سر اهتمام شيخنا بالإبقاء على حياة غازى حتى ولو كان على حساب حياته هو . ومضت ثوان أخرى بعد أن مات الضياء فى جسد الشيخ وعيونه ... ثوان عصيبة لم أدر فيها من أين أبدأ ... أأخبر القوم بموته فربما يخدع غازى . ويذهب الوقت سدى وأنا أحاول تهدئته لنقوم بمهمتنا ... ؟ أتركه هكذا حتى يطلع النهار عليه بعيونه الكاشفة ويعرف القوم كل شيء ؟ ؟ أسئلة كثيرة تدور فى خلدى الملتهب ... وبعد هنيهة قررت أن أذهب إلى غازى فى مرقده ، حين دخلت عليه كان يخفى بين طيات أسماله المهلهلة شيئا عرفت فيه البطارية التى يستعملها فى الإشارة الضوئية . تقدمت منه وأفهمته أن الشيخ مروان أنابنى عن نفسه فى الذهاب معك إلى هناك لأنه عاودته نوبة السعال القديمة وكما تعلم لا دواء لدينـــا . لم يرد على وأحسست لأول مرة أننى لا أقف أمام طفل قدر وقفتى أمام مارد له باع فى الجبروت والإصرار ... وابتدأنا نخطو اولى خطواتنا على الطريق حين التفت إلى وقال :

ـــ ألديك قرص آخر لأمعائى يا أختى ... ؟

كان القرص الثالث ، القرص الذى لم يعد حائراً بين الشيخ والطفل لأن الشيخ رحل عنا منذ أقل من نصف ساعة وبقى الطفل غازى . فالقرص له ... وله وحده دون منازع . أعطيته إياه ولمست ما للشيخ الراحل من إدراك لايعرف الهفوة . .

ابتلعه على الفور وبقى ماشياً وأنا بجواره ممسكة بذراعه القوية... ذراعه درع المستقبل ... إلى أن قاربنا حدوداً ذات أسلاك شائكة ، وعلى قمة تل كان هناك ضوء كاشف يدور فينير الدنيا كلها ، وتملكنى رعب شديد خشية أن يكتشفوا رقدتنا على هذه الأرض ... وبسرعة خاطفة تجسدت صورة أخى الصغير الذى حاول أن يلحق بى فى يوم . تجسدت صورته وهو معلق على أحد الأسلاك والرصاصات الثلاث محفورة فى ظهره الغض . بقيت منبطحة على الأرض وغازى راقد بجوارى يهمس لى بألا أتحرك قيد أنملة عن مكانى . لكننى كنت أحس أن ضربات قلبى من شدتها وتلاحقها تهزنى بقوة ملحوظة .

وبقيت فى رقدتى ... فلم أكن أملك أكثر من هذا .

مد غازى يده وتحسس أسماله القليلة وأخرج بطاريته بخفة كبيرة ثم أنارها وأطفأها ثلاث مرات متتالية . هممت أن أصرخ فى وجهه حين قال :

ـــ لاتتكلمى يا أختى فإن كشافهم يدور دورة كاملة فى دقيقة ونصف . فنحن نملك نصف هذا الوقت .

استدرنا زاحفين مرة أخرى وغازى بجوارى قوى صامد وأكثر ما أثار دهشتى أنه كان كمن فى ذهنه ساعة موقوتة فكان يزحف بسرعة كبيرة أثناء دوران الضوء إلى الخلف ثم يتوقف تماما عن الزحف ويلتصق برمال الطريق والضوء ينير البقعة التى نحن فيها ... ظل هكذا ... هكذا ... إلى أن قاربنا موقعنا الأول ساعة بداية زحفنا عند هذا المكان وقام واقفاً ثم سرنا إلى خيامنا ... وقبل أن نفترق كل إلى مكانه التفت إلى قائلا :

ــ لقد أحسست برحيل الشيخ مروان لأنى أعرف تماماً أن الشىء الوحيد الذى يعوقه عن أداء واجبه هو الموت يا أختى .

إحساس بالخجل من نفسى أقوى من إحساسى برحيل شيخنا الهرم .

فأين أنا من الشيخ والطفل . ولعلى لو توغلت فى معرفة الباقين . لاكتشفت أن للرضيع دوراً إيجابيـــاً ، وحتى للموتى دورهم هم الآخرون .

فأين أنت ريم من الموتى والأحياء .

رحمه الله كان يروى لى أحداث جهاد شعبنا الصامد فى كفاحه وانتفاضاته المتتالية . يحكى لى انتفاضة عام ١٩٢١ أيام موسم النبى موسى كانت هناك حركة مسلحة ضد الإنجليز ابتدأت من يافا وامتدت إلى بقية المدن لأننا كنا نعلم يا ابنتى أن الإنجليز رأس البلاء . ولـكن

القيادات فى ذلك الحين شغلت بالأكذوبة المتقنة التى قدمتها لهم إنجلترا فى طبق من فضة . ملهاة المفاوضة التى أتقن الاستعمار استخدامها حتى عام ١٩٣٦ مما أدى إلى التخبط والحيرة والسقوط فى مهاوى الخلافات الفرعية... أما شعبنا ياريم فقد كفر بأسلوب هذه المؤتمرات والموائد وهانت عليه نفسه حتى ذهبنا إلى حد التفاوض مع مساعد السكرتير العام لحكومة الانتداب مرة ، ومع الجاسوس البريطانى جون فيلبى مرة أخرى .

آه يا ابنتى رحم الله الشيخ عز الدين القسام لقد شنقوه وهو صائم فى شهر رمضان .

البلدة فقدت قلبها يوم رحل عنا ... ومن قبله كثير من أمثال الشيخ جمجوم وحجازى ، ثم أكمل حديثه معى فى تلك الليلة المقمرة وقال :

ـ كنا نحتاج ياريم إلى القيادة والحركة المنظمة التى تكفل لنا الاستمرار حتى لاننتهى كما انتهينا يومها . كانت لنا نهاية مخجلة ياابنتى حين أرسلت إنجلترا لجنة تحقيق أثر ثورة البراق الشهيرة عام ١٩٢٩ ، وخبيراً بريطانيا اسمه سمبسون للبت فى مشكلة أراضينا التى أرغمونا على تركها تحت وطأة الديون والربا الفاحش الذى كنا نسبح فيه حتى الأعماق .

رباه عنق أنا أحس به ثقيلا على كتفى من أثر التفكير فيما عاناه شعبى الصامد على مر الزمن ... فرحت فى إغفاءة قصيرة ...

وبعد هذا اليوم انتظرت كل ليلة أن يقول لى غازى أن هناك مهمة أخرى . ولكن انتظارى كان بلا نهاية . فلم أكن أراه إلا حين يأتينى كل بضعة أسابيع ليخبرنى أن ياسر ينوى زيارتنا فى القريب . وانتظرت مجيئة اليوم بعد اليوم . فأنا لا أملك إلا الانتظار . .

وفى صبيحة يوم وكان الهواء عليلا فنحن على أبواب الربيع ورائحة أشجارنا ومو الحنـــا تملأ الأنوف . وتثير الشهوة فى نفوسنا . . إلى الأرض التى سلبونا إياها . إلى الدار التى أستطيع فيها أن أنام ملء جفنى اللذين نسيا النوم الآمن . فنحن لا نعرفه ملء الجفون ، أنا لا أعرف النوم الذى تغمض فيه جفناى . وحتى لو شئت نمت مفتوحة الجفنين ! ! فى ذلك اليوم رأيت عربة آتية من اتجاه القدس التى اغتصبوها منا عنوة.

— آه يافدس آدم فى جنته يحسدهم عليها . . سقط قلبى ذعراً وأيقنت أنى هالكة لا محالة . . أو على الأقل أحد من الذين ينتمون إلى تلك الجماعة السرية للفدائيين . جريت أخبر القوم . فخرجوا ينظرون وينتظرون والعربة تقترب منا والرمال تهب كثيرة صفراء حولها تحجبها عن الرؤية . حتى رمالنا حنون بارة بنا . أرضنا برمالها تسدل ستاراً من الغموض لتخفى العربة عنا رأفة بنا . تخفيها إلى أن تصل إلى موقعنا وعند هذا نكتشف دفعة واحدة أنها . . أنها إحدى عربات هيئة غوث اللاجئين . فالرمال بذلك الستار الذى تثيره حول العربة توفر علينا مشقة التخمين لنجد أنفسنا مرة واحدة أمام عربة تحمل إلينا

الدواء والغذاء والكساء فلقد تعودنا فى تلك الآونة الأخيرة أن كل آت من خلف الأسوار يكون معه زيادة دمار وخراب وضياع دائماً وأبداً من نصيبيا وحدنا . عربة مكتوب عليها بالإنجليزية والعربية غوث اللاجئين تجرى فى مؤخرتها عربة أخرى نصف أتوبيس هبطت منها مجموعة من الرجال الشقر وأقاموا على الفور خيمة واسعة لها نوافذ وأبواب ومؤسسة على أحسن ما يكون . ذكرتنى على الفور بمنازلنا فى وسط البيارات .. خيمتهم لها شكل دار من طابق واحد .. خرج القوم كل يملأ عينيه من تلك الخيمة التى تشبه بيوتنا فى بلادنا . وأحسست أن هناك ابتسامة عبرت بتلك الشفاه لأنهم تذكروا بيوتهم .. لأن جمال منظر الخيمة أعاد لهم الإحساس بالجمال المفقود .. جمال بياراتنا وبيوتنا . حياتنا الآمنة التى طمس معالمها قوم لا تعرف قلوبهم الرحمة والعطاء ولا تعرف شفاههم الابتسام دون ثمن مادى حتى يرضوا أن يرموك بواحدة منها .

يا إلهى أين خيامنا من تلك الخيمة ؟؟

كان هناك رجل طويل القامة يميل قليلا إلى البدانة وسيجارة مشتعلة معلقة فى جانب من فمه . تحس حين رؤيته أن هـــذه السيجارة جزء مكمل لتقاطيع وجهه التى تدل على ذكاء لماح .. بعد قرب الساعتين خرج هذا الرجل مرة أخرى من خيمته وأخذ يتفقد تلك الحظائر التى نعيش فيها ..

نعم سيدى لم تزل فينا نبض يدل على الحياة بالرغم من الحظائر فهذه صدور لنسائنا تعلو وتهبط دليل على الحياة .

تعلو وتهبط لأنها تحيا .

وتعلو وتهبط لأنها تموت !!

تموت جوعاً وتموت حسرة

لست أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أتبع هذا الرجل . أتبعه خطوة بخطوة .. أقرأ عينيه وأفسر كل ما يدور بخلده . سرت وراءه خيمة خيمة وتعمدت أن أكشف له عن الأطفال المصابين الذين اختبئوا فى أحضان أمهاتهم . ظللت أصدم عينيه برؤيتنا رؤية ما آل إليه حالنا حتى أحسست أنه لن يطيق مزيدا .

وهنا ولأول مرة تلاقت نظراتنا . .

عينه هاربة منى .

وعينى تقول له فى صمت أكثر قوة من الصراخ :

— ألا ترى سيدى أننا نحيا . . فها هى ذى الصدور تعلو وتهبط دليل الحياة . ودليل الموت بالحياة .

فى صبيحة اليوم التالى كان هذا الرجل يأمر رجاله بجمع الأطفال المصابين كلهم فى مكان واحد وعزلهم عن ذويهم إلى أن يتم الشفاء أو الموت . وفى كل صباح كانوا يحصدون الأطفال الموتى ليأخذوهم فى العربة نصف الأتوبيس ويواروهم فى التراب فى البعيد . . أطفال لهم أمهات وأطفال سبقتهم أمهاتهم إلى نفس المصير .

كان هذا المشهد الموجع كل صباح يفتت أكبادنا وإنسانيتنا قطعا صغيرة يتقاذفها العدو بنعال أقدامه الدنسة فى ترابنا الطاهر .

هذه الأجساد المدفونة فى التراب تصنع أقدارنا . . أرى العيون حولى وقد استسلمت لفلسفة الحيرة والانعدام .

فلقد اعتادت محاجر عيونهم مشهدين . . . ! . ! .

مشهد انفصال الأرواح عن الأجساد التى أضناها البعاد . .

ومشهد انفصال جثث الأطفال والنساء عن الشيوخ والرجال كل فى مقبرة على حدة . .

فمن يمينى مدفن الأطفال وعن يسارى مقبرة الكبار .

رحماك رباه فلكل فرد فينا أكثر من حبيب وحبيبة فى اليمين واليسار .

صوت غريب ينادينى والوقت بداية الشروق . وهكذا نحن جميعا نقوم مبكرين إلا الثكالى فينا اللائى أضناهم البكاء فى بهيم الليل فيروحون فى الإغفاءة إلى قرب الصباح . تلفت نحو مصدر الصوت كان آتياً من الخيمة الأنيقة ، وعرفت فيه المستر جون سميث رئيس بعثة غوث اللاجئين .

والصوت له رنين الإصرار .

ريم ... ريما ... ريم ... ريما ...

هكذا كان ينطق اسمى متنوعا فمرة ريم وأخرى ريما ... رميت الشروق بنظرة مبهمة . فأنا لا أعرف لماذا ينادينى فى مثل هذه الساعة. فاليوم لا موتى لدينا ... أكثر من ثلاثة شهور منذ مجىء البعثة إلى اليوم وموتانا وخاصة من الأطفال فى تناقص مستمر .

ذهبت إليه ، استقبلني على باب خيمته الفسيحة . ودخلت وأول ما وقع عليه بصري نتيجة معلقة في أحد الأركان . جريت إليها وعرفت أنه صـــار لي أكثر من سنتين ونصف خارج يافا . فأنا عمري الآن سبعة عشرة عاما . وقلت أحدث نفسي :

— نعم فلقد مر علينا عيدان وبعد كل منهما يتناقص لي أخ !!

وهفا بقلبي حنين إلى حد الجنون إلى والدي . فلقد كان يختزن لي أشياء كثيرة يوم وصولي إلى هذه السن ... كان والدي يرى في أمل المستقبل ويفخر بكوني متفوقة بين أترابي في دروسي و ...

وقطع حبل تفكيري نجاه المستر جون سميث وهو يقول لي مرة بالإنجليزية ومرة بالعربية أن أجلس قبالته ... دار حديثنا سوياً ، هو يسألني عن كل شيء عن أبي وأمي الصامتة التي عرف أن لسانها أصيب بشيء يشبه الشلل أفقدها القدرة على الكلام وقد أفهمني أن السبب في ذلك هو رؤيتها لانفجار اللغم في أخي يوم وصولنا ...... في قلبي ثعبان شره فاغر فاه ليمزق قلبي من جديد حين أفهمني بهدوء أنه لا أمل في شفائها.

كنت أعرف أن السبب في ذلك ليس موت أخي فلقد اعتدنا ذلك. ولكن السبب أعرفه ولا أستطيع أن أشرحه له ...

السبب أننا معشر العرب نطيق لملمة الأشلاء ولا نطيق فقد العفاف حتى لو كان تحت إرهاب السلاح . فمن يومها فقدت النطق تماما .

ولكن هل حقاً لا أمل لها في الشفاء ! ؟

وهنا عاد صوت يدق فى رأسى كصوت ناقوس الكنيسة وهى تستجدى الفضيلة فى الناس ... هذا الناقوس يدق فى رأسى كلما فكرت فى الغد ... فأنا موقنة أن الأمل فى شفائها آت لا ريب فيه مع الغد . مع غد يعيد لنا ما سلبوه منا ... !!

أمسك الرجل ذو السيجارة التى لا تنتهى مطلقاً . أمسك بكتفى يهزنى . وعاد مرة أخرى يكلمنى عن أشياء كثيرة حتى نشأت بينى وبين هذا الرجل ثقة كبيرة وخاصة حين قال لى إن جنسيته سويسرية .

كنت أقضى الليالى الطوال أكلمه عن آلام شعب لا صوت له ... فلقد أخرسونا فى كل مجال وبقيت فقط أصوات العويل والبكاء عالية تسمعها فى كل واد ومن كل ربوة تسمعها مع حفيف الأشجار وتسمعها مع هدير المطر ... هنا فقط وسط الطبيعة الطاهرة تسمع أصواتنا .

ولكنها مخروسة بعيدة عن العالم الآخر ...

فمن أين سمعت بنا أيها الرجل وأنت فى بلادك البعيدة ... البعيدة جداً .

وكان جوابه لى تغييراً فى مجرى الحديث إلى موضوع آخر حين سألنى :

— ما معنى اسمك ؟؟ مامعنى ريم ؟؟

— ريم سيدى هى الغزال . والغزال شديد الحساسية يحب الأمن والهدوء . فهل تعتقد أننى أستحق هذا الاسم الآن ؟

وضحك هذا الرجل ملء شدقيه وهو يقول لى بعربيته الركيكة :

— أنت ريم فيلسوفة كبرى .

حقاً سيدى أنا أحس أن الغزالة انقلبت ذئبة فأنا أنام بعين واحدة والاخرى مسهدة أنتظر دوى رصاصة ما لاغمض بعدها عينى إلى الأبد .

ضحك ... ضحك كثيراً وأحسست ضحكاته تخفى وراءها فهماً كبيراً لما يعتلج فى صدرى . كان يعطينى الحلوى المخصصة له والطاقم الذى يعمل معه .. لأقدمها بدورى إلى إخوتى الباقين ... وكذلك بعض الأدوية المهدئة لنفسية والدتى ... كان أحسن ما يقدمه لى الكتب والجرائد اليومية التى كان تداولها ممنوعا بيننا ... لأقدمها بدورى خفية إلى غازى ورفاقه وكل من تريد أو يريد أن يقرأ ، وهالنى كل الهول أن أكتشف أن جميع تلك الجرائد لا تذكر كلمة عنا وكتابها لا يحسون بنا . ولا يعرفون هل نحن من عداد البشر أم من عداد مخلوقات هكذا لا معنى ولا مطلب ولا حياة لها ؟

وأصبحت الجرائد فرصة نادرة لإتقانى اللغة الأجنبية .

وعاد السؤال يلح على من جديد لأقول له :

— من أنبأك بنا وأنت فى بلادك البعيدة ؟

كان يراوغنى كقطرة زئبق تتدحرج هنا وهناك وعبثا أحاول لمسها ، حتى قطع حديثنا أحد العاملين معه قائلا :

— إن الممرضة التى تعمل مساعدة هنا تكتب الآن استقالتها .

أطفأ المسترجون سيجارته التى لا تنتهى ليشعل أخرى من جديد وهو يفكر فيما سمع ، وبدون أن أدرى وجدت يدى ممدودتين لأشعل له سيجارته .

شكرنى وهو ينظر إلى جيداً ويبتسم ... بادلته الابتسام فكثرة جلوسى معه عرفتنى عاداته تماما . وفى إحدى الليالى المقمرة وأنا مسهدة كعادتى أفكر وأفكر فى تلك المرأة الراقدة على بعد أمتار من خيمتنا امرأة وشيكة الوضع ... كل حواسى معها انتظر أن تشير إلى لأذهب من مرقدى إليها . فإننى والجميع معى ننتظر ونعد الأيام والليالى لكل امرأة على وشك أن تضع وليداً لنا . وفجـــأة مزق سكون تلك الليلة المقمرة صوت صرخة مكتومة لها ...

صرختهالها أبعاد كبيرة ...

أبعاد حزينة كسيرة ...

فإن امرأتنا تضع فى العراء ... بعيدة عن الإحساس بالأمان لنفسها ولوليدها . ولكن لا يهم . المهم أن نزيد عدد فدائيينا . فمع كل طفل يولد بيننا . نحس أنه يولد عملاق جبار .

فالظروف صانعة النفوس !! .

ونفس أطفالنا لن ترضى بالظلم وهذا التمزق الذى بتنا نحيا فيه فكل طفل جديد أمل جديد لنا .

فزادنا ... كل زادنا الآمال ...... والآمال ...... فى غد نعود فيه لديارنا .

وهل يمكن للظلم أن يسود ؟ لا وألف مرة لا ، فسيأتى الوقت .

سيأتى الوقت الذى أرى فيه الطمأنينة وقد كست بثوبها الأخضر أرضنا من جديد ويعود العندليب ليشدو أغنيته الخالدة فوق أرضنا المقدسة بدلا من أصداء الألم التى أسمعها فى كل شبر منها آلام خلقها

إنسان لإنسان !! خلقتها حفنة من الإسرائيليين ليشقوا شعباً بأسره. فحتى طبيعتنا باتت وأصبحت جامدة أضناها كثرة الحزن .

والناس فينا بقايا لأناس ...

فحين أجول بعينى فينا معشر اللاجئين قلما تقع عينى على شاب أو رجل لم يمسه الأعداء برصاصهم أورشاشات مدافعهم . فصنعوا الرجل فينا بساق واحدة أو أصبعين فقط من عشرة

° ° °

ونحن شعب من أرض الأنبياء ...

فنحن نتألم على نمطهم العميق . فجروحنا دائمة النزف لا تعــرف التوقف . لأنها مثل جروح الأنبياء .

فأنا أفرح أولا أعرف الفرح إلا حين يولد لنا بين الآن والآخر طفل له أطراف كاملة .

الفصل السابع

عتمة البداية

ضجيج آت من الخيمة الأنيقة ممتزجة بصوت عربات آتية هي الأخرى من خلف الأسلاك من أبواب قدسنا الموءودة . ومع تلك الضجة الكبيرة استطعت وأنا في مرقدى أن أسمع حفيفاً مخيفاً ... حفيفاً ينبئنى بالخوف ... ! !

ومتى كان للحفيف غير الرعب والأذى ؟ ؟

فالإسرائيليون لا تستطيع أن تسمع لأقدامهم وقعا معينا ، ولكنك تستطيع أن تتأكد من أن خطواتهم فى الحياة لها حفيف أفعى كبرى .

أفعى فى يد ساحر يضرب بعصاه ليقسمها إلى أفاع كثيرة جداً . والأفاعى تسمم كل شىء .

فطاردها العالم أجمع فى كل مكان .

فمن البديهى أن العالم العاقل لا يستريح لوجود الأفاعى بينه ... فأخرجوهم من كل بقعة هم فيها . ولم يجدوا غير قدسنا الطاهرة لينفثوا فيها سمومهم فسمهم كثير لا نهائى فلم تكفهم المدائن كلها . الأبعاد الجغرافية لا قيمة لها عند الأفعى فهى تحب الزحف الكثير وتغير جلدها من مكان إلى مكان .

هكذا أحسست فى ذلك اليوم وعرفت ماينتظرنا حين نزل أكثر

من إثنى عشر إسرائيلياً بين ضابط وعسكرى ثم تفقدوا الخيام كلها ... قلبوا كل شىء رأساً على عقب ...

كادوا يغربلون تلك الرمال التى نقف عليها بحثاً عن السلاح ولكنهم لم يعثروا على شىء . كان منظرهم يؤلم النفس أيما إيلام ... كان الضباط يأمرون العساكر باللغة العبرية أن يضربونا بقسوة . فما كان من العساكر إلا أنهم كانوا يدوسون على الأطفال النائمين على الأرض ، الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم شهوراً أو حتى أياماً معدودة ، فكنت أبصر الطفل وهو يصرخ صراخاً مريراً ثم ينكفىء على وجهه مهما كان صغيراً فى العمر وبعدها يصمت صمته الأخير .

رباه لم يكن صمته أخيراً ... ! ! ولكنهم أرادوا له ذلك . فكان لهم مايشتهون .

وأغلبهم مشوهون من أثر تلك الانفجارات التى كان يضعها العدو ليكرهوهم على الرحيل . جمعوهم صفاً واحداً وأمروهم بخلع ثيابهم وأصدروا أوامرهم بأن يجلد كل منهم خمسين جلدة ... كان صوت هذا الرجل يشبه نعيق البومة فى ليلة بلا صباح وهو يصرخ بعبرتيه أن يجلد كل رجل بقوة وبقوة شديدة . ولم يكن الجلاد الإسرائيلى يضرب بكل هــذه القوة عن طاعة لمرءوسيه ولكنى كنت أحس أنه يجد لذة لا تضاهى وهو يؤدى هذا العمل ، فمع كل آهة آتية من أى رجل وهو يضرب بكل هــذه الوحشية ... كانت عين العسكرى وضابطه تبرق فى نشوة لا تعرف الخمود ، ويهم كل منهم أن يشعل سيجارته ثم يشد أنفاسها فى عمق ولذة ... لكم كان هذا المشهد يضنينى ويفرغ تجاويفه

عقلى من كل صورة أو صوت فلا يبقى فيه إلا صورة الساعة وأصواتها .
أحاول أن أسد أذنى وأتمنى الإغماء حتى أروح فى تلك الدوامة اللانهائية ولا أسمع الآهات ولا أرى الشقاء فى أوضح صورة له .

وقلت أحدث الله هكذا يقينى كان فى تلك اللحظات . قلت أحدثه أو أسأله لا أدرى :

— يا إلهى أيمكن أن تخلق ليد وعقل بشر مثلنا كل هذه النار على الأرض . وهى ربما كانت أكثر جحيما من تلك التى سيصلاها الكافرون يوم الحساب . وهنا سمعت صوتاً قوياً له أصداء صحرائنا له أصداء صوت الماضى يقول لى :

— صانعوا الجحيم على الأرض استباحوا دم يوحنا المعمدان وهو يعبر النهر يوما ما .

عذبوا كل أنبياء الله فى الأرض ومن حمل الرسالة من بعدهم !!

قريبة ... قريبة جداً من الله أحس به إذا نظرت إلى السماء أو الأرض أو عن يمينى أو عن يسارى أحس أن الله معى .

إنه فى داخلى ... فى أغوارى ... فى تجاويف عقلى المنهكة . إنه يحس بى . يرى أمة كاملة . أضناها الشقاء من أجل حفنة من الإسرائيليين .
فمشيت ... ومشيت أكلم الله وأدارى وجهى عن أعينهم الفاحصة .
صعدت تلا صغيراً فى آخره شجرة تين حية !

وقلت أحدث نفسى :

— كيف بقيت تلك الشجرة حية فى مكانها بالرغم من هذا الموت الذى يترصدها من كل جانب ؟؟

ولكنها الأرض الطيبة ... الأرض الكريمة ... أرضنا نحن السلبية

تحسست الشجرة بأوراقها الخضراء وثمارها الكثيرة ومددت يدى أقطف إحداها ولكن شيئاً ماأوقفنى ، شىء يشبه الشلل . أوقف أصابعى وجعلنى أمعن النظر فى ثمرة التين . فى الماضى كنت أرى رحيق الثمرة عسلها وقد انساب فوقها فيغمرنى الإحساس بتذوقها .

أما اليوم فثمرتى استبدلت بالرحيق الدموع . هكذا رأيتها قبل أن أقطفها . ثمرة تنساب على جوانبها دموع بدلا من رحيق ... فأحجمت عنها ... وتلفت شطر قدسنا أنظر إليها من فوق التل الصغير كانت هى الأخرى حزينة كئيبة . جعلتنى أهرب من وجهها فأنا لا أريد أن أرى وجه قدسنا هكذا باكياً دامعاً ضائعاً فى خضم وجوه ليست منا . قدسنا التى كان يلذ لياسر أن يقف ليراها من فوق كل تل... كان لا يكتفى بأن يرى جانباً واحداً منها ولكنه يصعد حتى إلى السماء ليرى كل القدس متلألئة ثم يضع يده على كتفى ويقول :

ـ هذه المدينة فى دمى ... فى عروقى لأنها يا ريم ليست مجرد مكان أنها زمان إن لها من العمر أربعة آلاف سنة . هذه المدينة ياريم عشقتها البشرية جمعاء .

أين أنت يا ياسر وأى مكان يحتويك ؟ أين أنت ياخالد ؟ ياصديق الدرب من يوم أن ذهبا ليلة العيد وتنقضى الشهور والسنون لا يصلنا شىء عنهما ونزلت إلى السفح بعد أن ألقيت على شجرة التين نظرة وداع . فربما يقتلعها الأعداء غداً أو بعد غد ليتلذذوا بموتها كعادتهم

فى ذلك الشأن . ولم تطاوعنى أصابعى فى أن أقطف التين الدامع لآ كله .

يبدو أننى ابتعدت كثيراً عن خيامنا . فكان الطريق شاقا وطويلا أثناء العودة أوهكذا خيل إلى، فلقد كنت أخشى مقابلة قومى وقد أخذ الإسرائيليون منهم كل مأخذ .

أخشى رؤية الشيوخ يبكون !!

والأطفال يذعرون !!

والشباب وقد حولوهم إلى جرذ صغير ..!!

آه أخشى حالنا وحاضرنا ... فتباطأت خطواتى وتكاسلت . ولم أدر إلا وغازى يجرى نحوى ويسأل عنى ثم قال :

— إن مستر جون عاد لتوه من تل أبيب وهو يريدنى على الفور ...

ذهبت إليه أنا وغازى ... استقبلنى متجهما على غير عادته معى . ثم أضاف وهو يتشاغل بسيجارته التى لا تنتهى :

— آنسة ريم إن لم يكن لديك مانع فى الوقت الحاضر أن تعملى مساعدة لى ولكن ليس بصفة رسمية لأن المساعدة قدمت استقالتها .

تكلم كثيراً ولكنى لم أستطع أن أفهم منه أكثر من أنه يريد أن أحل محل الممرضة الغائبة وابتدأت العمل فور قبولى . كان علينا أن نبدأ بمن عذبوا اليوم من الأطفال والشيوخ والنساء ولقد فهمت بعد ذلك أن السلطات الإسرائيلية تعمدت إبعاد جون سميث من أول

النهار حتى تتفرغ لتذيقنا ألوانا من المهانة والتعذيب بلا رقيب . كان يومى شاقا مضنيا وأنا كلى إصرار وعزم على العمل لآخر دفعة من روحى فإن من يقاسون أهلى وأحبائى . توأم نفسى فى درب الشقاء والشوك فكيف أسمح لنفسى أن تتوانى فى خدمتهم هنيهة واحدة . كنت أرى العيون وقد استسلمت لفلسفة أنه ليس هناك مفر مما يحدث ! ! وعيون أخرى ماتت فيها حتى تلك الفلسفة ! ! كل ينظر إلى جراحه العميقة والدم الأحمر يسيل من كل شبر من أجسادهم وعلى وجوههم فضلة ابتسامة لاتحمل معنى يمكن تفسيره بسهولة . العيون كل العيون تذكرنى بالعزيز الغائب وعرفت أنهم لايحسون بجراح أجسادهم قدر إحساسهم بجراح أرواحهم على ما آلت إليه حياتهم من دمار وخراب . ولهذا هم لايحسون بآلامهم الجسدية .

غازى يبدو اليوم منشغلا عنى فلم يأتى فى الصباح الباكر كعادته ليعبىء معى زجاجات الدواء التى أوزعها على المرضى والمشوهين. لا لم يحضر غازى اليوم كله ، حتى قاربت الشمس على المغيب لتهرب من الشرور التى ملأت العالم ، فجلست على إحدى الصخور القريبة من الخيام جلست أطيل النظر إلى الشمس . وراعنى أن أرى أنها كلما اقتربت من أرضنا ازداد احمرار القرص رويداً رويداً وغاب الضوء الأبيض من جوانبها وقلبها . أحسست الشمس ضجرة وكأنها تقول لى :

ـ إن الدماء على كثرتها فى القدس لطخت وجهى الأبيض فأحالته إلى هذا اللون الدامى .

نعم فدماء الأبرياء منا كثيرة . شربت منها الأرض ! ! وشربت منها النفس ! !

وقطع حبل تفكيرى لجأة صوت يقول :

— فيم تفكرين يا أختى ... ؟؟

وعرفت فيه غازى كان ينبئنى ببعض الاخبار ثم طلب منى أن أرافقه مرة أخرى قرب أبواب القدس من ناحية الخليل وأخذ يشرح لى المكان ويحدده بالضبط حتى إذا تعرض أحدنا للموت قام الآخر بدوره كاملا ... يذهب ليعطى إشارة ضوئية لبعض الفدائيين الذين سيرحلون الليلة عن خيامنا لزرع ألغام فى أحد معسكراتهم الكثيرة . ولابد أن يطمئنوا ليتمكنوا من العودة سالمين بإذن الله .

منـــذ أن عملت كممرضة للمستر جون وأنا أبيت فى العربة نصف الأتوبيس مع الممرضة الأخرى الباقية ودائماً آخذ أحد أخوى معى . حقا لم يجبرنى تماماً المستر جون على ذلك ولكنها كانت فرصة لى لأقرأ جميع الجرائد طول الليل أوأسلى نفسى بتعبئة الأدوية أو تجهيز غيرها لغد شاق وكان من إجراءات الأمن الموضوعة للعاملين فى غوث اللاجئين أنه عند فتح باب العربة أو أحد نوافذها ينطلق جرس قوى ينبه الحارس أن هناك من ينوى دخول العربة ... وبالطبع لم أشأ أن أنام هذه الليلة بالذات بجوار أمى حتى لا أثير شكوكهم.. كل هذا حدثت به غازى وأنا أتظاهر بعلاج أحد المصابين فى خيمته . فغاب ما يقرب من نصف ساعة وعاد ليقول لى إن أحدهم سيقطع التيار الكهربى

عن العربة حتى أتمكن من الخروج سالمة . عرفت الراحة طريقها إلى قلبي المسهد حين اطمأننت على إمكان تنفيذ خطتنا الليلة . ولم أحاول أن أعرف من هو الشخص الذى سيقطع التيار هذه الليلة . لم أحاول هذه المرة فلقد طلب منى غازى أن أعمل دون أن أسأله شيئاً البتة . رجعت إلى الخيمة الكبيرة أسلم باقى الأدوية وأقدم تقريراً عن سير العلاج عامة ثم أشعل المستر جون سيجارته الدائمة . حين دخل اثنان من العاملين معه وحدثاه بالإنجليزية بما معناه أن هناك توجيها من السلطات الإسرائيلية مصدره الحقيق القوة الصهيونية المعينة فى الخارج توجيها بزيادة الحراسة على الخيمة وعربة الدواء وكل ما يتعلق بمنظمة غوث اللاجئين . هوى قلبى بين قدمى بعد أن عرفت أن الحراسة ستتضاعف منذ الليلة ولابد أنه سيكون من العسير عليهم قطع التيار الكهربى عن العربة . ألف سؤال وسؤال جال بخاطرى أثناء وقفتى الذليلة أمام المستر جون ... وقلت :

— يالضعفنا . فهاهى ذى السلطات الإسرائيلية تضاعف الحراسة لتضاعف من ضحايانا ! !

فأنا أعرف مدى قيمة تلك الإشارة المتفق عليها فى حياة الفدائيين .

اقترب المستر جون رويداً رويداً منى ثم وضع يده على ضفيرتى يتحسسها ثم ربت على ظهرى فى حنان بالغ وقد اعتقد أننى غاضبة منه ولهذا لم أهم بأن أشعل له سيجارته كعادتى . وقبل أن أقول له بأنى لست غاضبة كان هو يقول :

— لاتعتقدى يا ابنتى أنى لست غاضباً وفى ضيق منذ أن علمت بما حدث لك ولقومك و . ولكنه لم يتم عبارته وأمسك ذراعى يجلسنى أمامه... كفأرة مبتلة تراوغ وحيدة فى المصيدة . كنت أحاول أن أقطع حديثه لكى أذهب وأكلم غازى بماسمعت ولكنه كان المحال... المحال بعينه . فتح أحد الأدراج الموجودة أمامه وقدم لى نصيبه من الحلوى ... وعاد ليكرر على مسامعى أنه ثائر وغاضب من أجلى ومن أجل شعبى . أحسست لكلامه رنة الصدق الحقيق .

صدق وسط عالمنا هذا ! .

عالمنا الدامى ! :

نعم كان صادقا من أعماقه وهو يكلمنى عن قومى عن أبى وأخوتى... وكان صادقا أكثر حين أفصح عن سبب حبه لى فلقد كانت له ابنة فى مثل عمرى ولها عيناى السوداوان ماتت وحيدة فى كوريا ... ولم يعرف نبأها إلا بعد فوات ثلاثة أشهر كاملة . هم أن يطفىء سيجارته حين هممت أنا الأخرى لأشعل له أخرى حتى لايترك وحيداً دون جليسته فى ركن فمه... لم يكن أمامى إلا أن أتصنع النوم لأهرب من جلسته وأذهب لآخذ أخى الذى تعود النوم بجوارى حتى يمكننى مخاطبة غازى بلا حرج . ولكنى فوجئت به ينتظرنى أمام باب الخيمة .

تباً لك يا أخى . لماذا لم تنتظرنى هناك فى مرقدك كعادتك معى . الحلقة تضيق حول عنقى أكثر وأكثر حين أصر المستر جون

واثنان من مساعديه أن يوصلونى سيراً على الأقدام إلى العربة . ثم أدخلونى وأخى معى وأغلقوا الباب بقوة علينا .

شعرت أننى أدفن حية فى هذه العربة !! ومتى كان للموءودة إرادة فى أن تخرج للحياة من جديد ؟ نام أخى وبقيت مسهدة أنظر من كل نافذة وأفكر فيما سمعت هذا اليوم عن جماعة الصهاينة تلك التى تتزعم إضرار الإسرائيليين لنا بقوة سيطرتها ونفوذها فى كل المحافل الغربية . مسهدة أنظر من كل نافذة وثقب فألمح ذلك الحارس يروح ويجىء فى يقظة كبرى . ولم أتصور أن أهضم مطلقاً فكرة الاستسلام . والساعة تقترب من الموعد المتفق عليه . وفجأة طرأت لى فكرة رائعة للخروج بدون استعمال باب العربة أو أحد نوافذها مطلقاً . وعلى الفور توجهت إلى المخرج الوحيد لى من هذا السجن المكهرب الذى وضعونى فيه .

توجهت إلى دورة المياة الموجودة بالعربة وأزحت الغطاء الموضوع ثم مددت يدى أرفع جردل الفضلات من مكانه كما يفعل المسئول عن هذا يوميا .

كان ثقيلا ممتلئا ولكنى لم أيأس وبقيت أجاهد لأرفعه من على الأرض إلى مستوى وفقق فى العربه، وفى آخر شدة له اندلق بعض منه فوقى.. جريت كالمجنونة أسكب المطهرات الكثيرة فوق ثيابى وأرض دورة المياه . استيقظت زميلتى التى تنام معنا فى العربة وأتت إلى فأحكمت إغلاق الباب حتى لا ترى ما أنا فيه . الدق يتوالى على الباب وهى تقول:

— ماذا يافتاة ماهذا العبث فى المطهرات ... إن رائحتها تحرق أنفى. سأشكوك للمستر جون غداً . ذهبت لأحضر بعض الجرائد والمجلات لأغطى الجردل خشية أن تستيقظ مرة ثانية على هذه الرائحة . التى ربما تفضح نيتى . وهنا تكون الطامة الكبرى بعد دقائق كان فيها العرق الغزير ينساب فيها من كل مسام جسمى . بعد تلك الدقائق دلفت دفعة واحدة إلى الخارج من الفتحة المعينة فوجدت نفسى تحت العربة تماماً. تجولت بعينى أبحث عن الحارس كان جالسا على السلم الخلفى للعربة متشاغلا بشىء ما فى يده . انتظرت ألتقط أنفاسى ثم ابتدأت الزحف خارج العربة . أحسست الهواء أكثر برودة بدون سقف العربة فوقى ولكنى واصلت الزحف بسرعة كبيرة وأنا أسترجع فى مخيلتى كلام غازى حتى بدت لى بوابات القدس على بعد . فانحرفت ناحية الخليل وأنا كلى أمل أن أجد بجوارى غازى .وحين تأكدت تماما أنه الموقع المطلوب أفقت على حقيقة مذهلة جعلتنى أحس الأرض تميد تحت صدرى المتعب .

ليس معى بطارية لأشير بها ... ياإلهى أدفع عمرى كله مقابل أن أعثر على بطارية.وتذكرت أننا حين كنا صغاراً فى مدرسة يافاقالوا لنا أن النار تأتى من احتكاك حجرين و ... انتابنى دق شديد فى رأسى من هول الواقع الذى أنا فيه أيمكن أن أفعل كل هذا ثم لا أجد شيئاً أشير لهم به ؟ . وفجأة وأنا أتحسس جسمى لأوقن أننى فى حقيقة قاسية ولست حالمة .. تحسست أصابعى علبة فى جيبى . عرفت فيها على الفور علبة الثقاب التى أشعل بها سيجارة المستر جون .

أخذتها على عجل وضغطت عليها بيدى كأنى أخشى أن يأخذها منى أحد . ولكن أى شىء أشعله لألوح به حتى يروا الإشارة .. أأخلع ثيابى البيضاء التى سلمونى إياها كعهدة مؤقتة لأحرقها وألوح بها ؟ ؟ وماذا يكون من أمرى بعد أن يكتشفوا ضياع الملابس ؟ لابد أنهم سيغربلون الرمال حفنة حفنة وحين يعثرون على ثيابى البيضاء . سيعرفون كل شىء ولكن ماذا أفعل يا إلهى ... إنى ضارعة إليك أن تلهمنى الرشاد . مرت ثوان أخرى وأنا حائرة فأى شىء يمكن أن أشعله ؟ كان ما يمكن أن أشعله هو ضفيرتى السوداء المتدلية خلف رأسى منتظرة مصير لها .

أشعلت طرفها وأبقيتها هكذا فترة قصيرة إلى أن قاربت النار وجهى فأطبقت على شعرى بيدى فخمدت النار على الفور . . ثم التفت إلى الخلف عائدة فى سرعة كبيرة إلى العربة مرة أخرى .

لم أكن أزحف أو أمشى أثناء العودة ولكنى كنت أشعر بأنى أحلق فى الجو عائدة إلى السيارة من حيث خرجت .

النجاح أعطانى قوة لاتعرف التعب . . كنت أعمل وأفكر دون إرادتى كأنى آلة تؤدى دورها المرسوم .

فى الصباح الباكر كنت أستعد لعملى اليومى ولم أنس أن ألف شعرى إلى الخلف لأداريه حتى لا يلحظوا الحريق فيه .

وفى أثناء عملى رأيت غازى مهموما .. وعرفت أنه لم يستطع أن يبارح مكانه ليلة الأمس لوجود الحراس الجدد .

الفصل الثامن
العــذراء

أين ضفيرتك يا ريم ؟؟

ثم مد يده يربت على ظهرى فى حنان ..

فقلت له وأنا أخفى اضطرابى المفاجىء ؟

ـــ مللت الضفيرة ياسيدى .. اشتقت أن أغير ككل فتاة لها نفس عمرى ..

نظر إلى ممعنا وقال :

ـــ مللت الضفيرة فقط ألم تملى الحياة هنا إنى خائف عليك ياابنتى.

كان هو خائفاً على نفسه وعلى .. وكنت أنا خائفة على شعب بأكمله .. على حياة أمة .

ثم أضاف قائلا :

ـــ إن وكالة غوث اللاجئين لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فأنا راحل بعد أيام مبدئياً إلى تل أبيب ومنها إلى وطنى ويعز على تركك هنا وأنا أعرف أنك هالكة لا محالة إن لم يكن اليوم فغداً .

الغد القريب جداً .. ربما ..

للوهلة الأولى لم أستطع أن أهضم فكرة تركى لخيامنا والعيش فى تل أبيب وأهلى وعشيرتى هنا فى العراء مشردون ..

ولكنه قال لى بالحرف الواحد :

ـــ إن عيبكم الوحيد يا معشر العرب أنكم عاطفيون أكثر من اللازم و..

اغرورقت عيناى بالدموع وهو يكلمنى بهذه اللهجة العنيفة .

فقال على الفور متداركا صادقاً :

ـــ أقصد أن أقول لك إنه لا وقت لديك للعواطف فمن الأفضل أن تعملى وتأخذى أجراً يعين والدتك أينا كانت على الحياة لأن غوث اللاجئين لن تبقى إلى الأبد ..

أعى كلماته بكل ما تحمل من معان واضحة وأخرى خفية .. وتصورت أن نعود للحياة مرة ثانية دون مساعدة غوث اللاجئين .. ولا أمل لنا فى أن يأتى ياسر كما كان يفعل قديما ومعه بعض أصناف الطعام لنحيا به شهوراً ونحمل هم قرب انتهائه ..

سنعود مرة أخرى لنقتسم حفنة دقيق ممزوجة بالتراب وقررت أن أذهب معه لأتمكن من أن أطعم أخوى وأمى على الأقل ..

وطالت ليالينا سويا وهو يحكى ويحكى لى عن أمور كثيرة وأنا أستشف منه ما أكد لى أن السلطات الإسرائيلية فى حالة ذعر شديد من نشاط الفدائيين وأنهم ينوون تطويق أحد المواقع التى يكثر فيها العرب ويظنون أنها وكر للفدائيين .

فإن النقمة قد فاضت بين أهل الأرض .. وهم يودون امتصاص هـــذه النقمة قبل أن تنفجر ، وجاء يوم الرحيـل وكان يتحتم على ألا أركب بجوار المستر جون علنا هكذا أمام العاملين معه حتى لا أثير

الشبهات حولى وحوله وانتظرنى بعربته خلف أحد الجبال وبعدها بدقائق كنت أدلف بجواره وقد أطلق العنان لسيارته .. مررنا من بوابات القدس كلها دون كلام لأن السيارة مكتوب عليها غوث اللاجئين وأنا أجلس بجواره مرتدية رداء ممرضة .. دخلنا القدس الطاهرة ودلفنا من شارع مأمن الله ثم شارع يافا ..

أنا أعرف كل هذه الأماكن .. فهنا كان لى لقاء مع ياسر فى أيامنا الخوالى ..

وهناك كان لى نزهة مع والدى أعود بعدها محملة بكل أصناف اللعب . ثم مشينا فى أجمل الشوارع وأكبرها أنه شارع القدس وهناك قرب أحد الاديرة الخاوية لحق أماكن العبادة هجروا من فيها بالحديد والنار .. قرب هذا الدير غاب قرابة نصف ساعة تقريبا ينهى فيها إجراءاته ثم عاد مبتسما وأخذنا عربة أخرى اتجهنا بها رأسا إلى تل أبيب ..

لم أر فى حياتى رجلا أكثر سعادة منه وأنا جالسة بجواره .. كان يخرج لى كل دقيقة شيئاً آكله أو أشربه يوقف العربة قليلا لأستريح ويعود مرة أخرى ليصلح من شأن المقعد الذى أجلس عليه وقرب مشارف تل أبيب أوقف العربة وأوصانى بالتماسك أمام الواقفين على الحدود ثم أعطانى بطاقة مكتوب عليها بالعربية اسم جديد وموطن وجنسية أخرى ..

اليوم هو الثالث عشر لى فى تل أبيب وقد عملت مساعدة ضابطة فى مدرسة الأطفال .. والفضل فى هذا يرجع للسيدة كاسيل التى أوصاها المستر جون بى خيراً قبل أن يسافر خارج تل أبيب فى مهمة خاصة كما يقول ..

والمدرسة تقع بجوار مبنى البوستة فى أحد الشوارع الرئيسية وعملى بسيط جداً ليس أكثر من ست ساعات فى اليوم والعطلة الرسمية يوم السبت ..

وكنت أتقاضى ثلاثة عشر ليرات فى الاسبوع وأبيت فى حجرة مدام كاسل إلى أن أجد لى مكاناً آخر ولقـــد كنت خائفة من فـكرة السكنى فى حجرة بمفردى .. وفى أيام كثيرة كنت أكره حياتى وعملى وأتمنى أن أترك كل شىء على حاله وأعود إلى قومى فى العراء ...

كل شىء هنا فى إسرائيل يعكس الضنى فى نفسى ..

أطفالهم الأصحاء بعيونهم الملونة والسوداء وملابسهم النظيفة ، كل ذلك يذكرنى بأولادنا وأحوالهم فلقد كنت أرى فى أحيان كثيرة عظام أجسادهم من خلال تقيح جروحهم من أثر انفجار الألغام فيهم .

أطفالنا فى العراء تمر عليهم الأيام والسنون لتزيدهم جهلا وظلاماً وهؤلاء الأطفـال يتعلمون لتتفتح عقولهم وتتوسع مداركهم ثم قلت أحدث نفسى :

ـــ حقاً تتفتح عقولهم ويتعلمون كيف يستخدمونها فى النيل منـا دون سبب مفهوم ..

كان المسئولون فى المدرسة يهتمون اهتماماً خاصاً بالأذكياء من الأطفال ويجرون كل ثلاثة أسابيع اختباراً للقدرات ثم يقومون على عزلهم فى جانب آخر من المدرسة ، وهناك يتولون تعليمهم على نمط خاص .

كانوا يربون عقول شعب لتدمير شعب آخر .

الليرات الثلاثة عشر لا يمكن بحال من الأحوال أن أجد منها فائضاً للسكنى خارج حجرة مدام كاسيل ويومها طرأت على ذهنى فكرة أثارت ضحك زملائى وسخطهم على فى آن واحد ..

فقد لاحظت وجود حجرات كثيرة ذات نوافذ صغيرة فى الدور الأول من المدرسة فطلبت إحداها للسكنى على أن يخصم أجرها على أقساط من مرتبى . . وبالطبع لم أكن أدرى أن هذه الفتحات إنما هى خنادق مجهزة للدفاع عن المدرسة فى أى وقت .. ومن بعدها يا إلهى لاحظت أن كل مبنى فى تل أبيب من أصغر منزل إلى أعلى بناية مجهزة بمثل هذه الخنادق حتى دورات المياه فى هذه الشوارع ..

وفى أحد الأيام استيقظت متأخرة على غير عادتى وقمت مضطربة جداً .. فأنا لا أحب أن أثير حول نفسى أى نوع من المشاكل ..

خرجت إلى الطريق مهرولة ..

كانت الشوارع مبللة بالمطر الكثير .. الشوارع باكية مثل قلبى تماماً وأنا أنقل عينى بين وجوه المارة أراهم كلهم متدثرين بالملابس الثقيلة ... الملابس الغالية ... كانوا يدفئون حتى أيديهم بقفازات ذات فراء ... آه يا لقومى فى مثل هذا الصقيع لا يملكون ما يسترون به عوراتهم ...

دخلت المدرسة وهالنى أن لا أجد التلاميذ بالمدرسة ... فعدت مرة أخرى لما يثير ضجر العاملين معى ... عدت أسألهم عن التلاميذ ... فقالوا لى :

— إنهم يؤدون تدريبهم الاسبوعى يا بلهاء ...

ثم أمرونى بالذهاب لأكون فى خدمتهم هناك ..

عدت مرة ثالثة لأسألهم عن مقرهم ؟ !

إنهم فى فناء الدير القريب يا بلهاء .. !!

وهناك كان أغلب التلاميذ منبطحين أرضاً ويتلقون تعليمات من بعض الرجال الجالسين فى مكان مرتفع قليلا قرب ناقوس الكنيسة ويصدرون أوامرهم من أحد مكبرات الصوت ...

كانوا يأمرونهم بالزحف وكأن أسلاك شائكة فوقهم ثم يجعلونهم يتكلمون مرة بإشارات ضوئية وأخرى بأعلام وزعوها عليهم ...

نزل أحدهم من عليائه ... !! فالتف حوله التلاميذ كان بينهم مدفع رشاش فتولى هذا الرجل شرح تركيبه قطعة قطعة وكيفية استعماله ...

استكثرت أول الأمر اهتمامهم الزائد بالتدريب العسكرى وهالنى هـذا التطرف ، وكذلك عز على الزج بكل هـذا العدد من الأطفال الأبرياء فى مثل هذه الأمور ...

وهنا قفزت إلى مخيلتى صورة غازى ... ولكن لغازى عذره فى ذلك فنحن المظلومون .. نحن المطرودون ولكنهم مغتصبون لحياتنا وممتلكاتنا .. وكل مالنا ...

دقت الكنيسة ناقوسها فهم التلاميذ بالتوجه إلى داخلها ..

دخلت خلفهم ..

أجرى فى ركبهم . .

والغبار حولى من أثر وقع أقدام هذا العدد الهائل يملأ المكان ... تملكتنى رهبة وأنا أدخل بيتاً من بيوت الله وهناك فى آخر الممر الطويل الذى كنت أسير فيه تمثال للسيدة الطاهرة لسيدتنا الها العذراء لم أدر بنفسى إلا وقد ركعت أمامها بخشوع ..

أمام سيدة العالمين سيدتنا الطاهرة . .

يا الراحة والهدوء الذين نسيتهما زمناً !. عاد إلى على شكل دموع انسابت تدغدغ وجنتى .. ثوان ولكنها غسلت قدراً كبيراً من أحزانى ... وعلى حين غرة سمعت قهقهة عالية آتية من الجحيم ! ! ... من الجحيم المصطف خلفى .

القهقهة تعلو وتتكرر . .

قهقهة شيطان يسكن ذلك الجحيم الذى خلفى . .

ذهبت تلك الراحة عنى والتفت صوب مصدر الصوت كان الرجل الذى يدربهم يضحك ويضحك ويضحك بكل ما فيه من قوة ، بكل ما فى قلبه من كفر ونكران .

ثم قال :

— فى أى قرن تحيين ؟ إن مثل هذه المعتقدات تؤخر الشعوب فلا وقت لدينا لمثلها ... أرجوك ألا تشوهى تفكير التلاميذ بمثل هذه الحركات البهلوانية التى تأتين بها أمام أعين التلاميذ يا بلهاء ..

خيل إلى أن العذراء المنزهة فى سمائها تحس الضجر ..

صفعنى الرجل بنظرة استخفاف ثم استدار على عجل موجهاً كلاماً كثيراً إلى التلاميذ .. استطعت أن أفهم منه أنه يربى هؤلاء الأولاد على كراهية العرب وعلى اعتبارهم دخلاء فى أرضهم ومغتصبين وأنه لابد لهم أن يتسلحوا بكل سلاح لمواجهة هؤلاء الطغاة السارقين .

قال لهم أشياء أخرى أنا أشعر بالخجل من تذكرها بل أشعر أننى أرتكب ذنباً لمجرد تذكر كلامه هذا .

قال لهم ما معناه إنهم شعب الله المختار ...

الشعب الذى يجب أن يسود العالم كله ويحكمه .. فلا مجال لأى شعب آخر فى السيادة ولا مجال لأى ديانة أخرى غير ديانتهم ..

وأن مايفعله المسيحيون فى كنائسهم ومايفعله المسلمون فى مساجدهم إنماهو ضرب من ضروب الغباء ومضيعة للوقت سدى فماذا يستفيدون من حركاتهم الأوتوماتيكية التى يأتون بها صباحاً ومساء .. ثم يقول:

— ألا ترون معى أنهم متأخرون منحرفون ثم أنهم كذلك متوا كلون فى كل شىء ..

— أمامكم مثل من المتواكلين وهو مع احترامى لشخصها مساعدة الضابطة الآنسة / نانا ..

نعم هذا هو اسمى الجديد الذى اختاره لى المستر جون لأحيا به متخفية منا فى تل أبيب ..

ثم قال :

— لحين دخلت ركعت أمام تمثال العذراء لعلها تطلب زيادة فى المرتب أو عودة حبيبها ..

ضج التلاميذ بالضحك وعاد إحساسى بأنى أقف وســـط الجحيم يسيطر على :

ثم عاد ليقول :

— ألا ترون معى أنها متواكلة . لعل السيدة العذراء توصى ابنها عيسى أن يمطر لها ذهبا من السماء .

عاد الجميع إلى الضحك من جديد . وهم يقولون فى صوت واحد :

— يامريم أمطرى لها ذهبا .

— ثم انبرى واحد آخر كان ولداً فارع الطول يحمل رأساً أشقر صغيرا جدا بالنسبة لطوله .. انبرى يقول :

— أنا أطلب لك من مريم العذراء عودة حبيبك .

أسكتهم هذا الرجل بنظرة واحدة من عينيه ثم قال لى :

— أنت مطلوبة غدا فى مكتبى .

أى عناد أبقانى أمامه أحدق فى قسمات وجهه المغرقة فى الغرابة حتى أعاد أوامره على أكثر من مرة .

كانت كلمة شعب الله المختار تدق رأسى كفأس فى يد رجل يحفر فى الماء ... ذقات لها صوت الغضب والثورة واليأس فى آن واحد .

فهل يرضى الله لشعب أى شعب فى الوجـود أن يطمس ديانات شعوب أخرى ... ديانات أنزلها الله ... الله بعينـه أم أن لهم إلها خاصا بهم يرفض بكل هذا الإصرار أى ديانات أخرى ؟ ارتميت على أول مقعد صادفنى فى الحجرة وبقيت هكذا إلى أن خرجت مدام كاسيل

من الحمام مبتلة تجفف شعرها وهى تغنى أغنية فرنسية . كان عقلى يترجم معناها بصعوبة غير كبرى أحاول جاهدة أن أتذكر رصيدى من هذه اللغة . فلقد كان لى فى يافا صديقة والدتها فرنسية وكنا كذلك نتعلم الفرنسية فى مدارسنا . أما العبرية فقد كنت أعرفها بدرجة كافية بحكم وجود اليهود بكثرة فى بلادنا ... كانت الأغنية تقول :

ـــ حينما تحتوينى بين ذراعيك . وتكلمنى كالهمس فى أذنى تجعلنى أرى الحياة بمنظار وردى ، لكم كنت أود أن أغنى بصوت يشبه الصراخ أغنية أنا مؤلفتها وأنا مطربتها . أود أن أقول فيها . حينما تحتوينى بين ذراعيك المغتصبتين وتتوعدنى بصوت يشبه فحيح الأفعى فإنك تجعلنى أرى الحياة بمنظار أسود .

هذا ما يحق لنا أن نتغنى به ... نترحم به على أنفسنا وحياتنا .

لاحظت مدام كاسيل اضطرابى وبعد إلحاح قصصت عليها كل شىء وتعمدت أن أخفى عليها قصة سجودى أمام تمثال السيدة العذراء . سيدتنا الطاهرة حتى لا أثير شكوك السيدة الوحيدة التى أحتمى فيها هنا .. هنا .. فى تل أبيب .

الفصل التاسع

خادمة فى فندق

بعد حوالى شهرين من عملى الجديد وصلت إلى حالة من الوجود تقترب من اللاوجود فالتفكير فى قومى الضائع ووالدتى الخرساء وأخوتى . التفكير فى كل هذا يمتص نهارى ويرحل عنى فى آخر الليل وقد تركنى كالرماد لى وجود ما يقترب فى واقعة من اللاوجود حتى وأنا أقبض بيدى على هذه الليرات الخمس ..

خمس ليرات كل ما ادخرت طيله شهرين من العمل فى فندق برلا الذى تعمل فيه مدام كاسيل كمديرة عامة . فقبل شروق الشمس كنت أغسل الأرض ودورات المياه وأنظف النوافذ وأجمع أعقاب السجائر والزجاجات الفارغة الملقاة فى كل مكان يمكن تصوره وكل مكان لا يمكن تصوره .. فالزجاجات موجودة فى الفراش فى غطاء الوسادة . فى قلب حذاء ملقى هناك . فى .. فى .. بينما زميلتى فى العمل تقوم على تسوية الفراش وتنسيق الزهور .

كانت سيدة فى حوالى الأربعين من عمرها حمراء الشعر تميل إلى البدانة ، لها صدر كأنها تحمل به أوزار البشرية جمعاء .

استبدلت بلامبالاتى بها نوعا من الحنان الغريب ! ! فالأمومة لا يمكن إنكارها فى كل زمان ومكان . لا يملك الفرد إزاءها إلا أن يحنى رأسه إجلالا . كنت أحس أنها تغسل ملابس النزلاء بدموع عينيها أكثر من أن تغسلها بالماء الجارى . لأن موعد قضيتها اقترب وهى تعترف بخطيئتها أساساً يوم قبلت أن تبيع أصغر أولادها لإحدى

الأسر الدبلوماسية مقابل ألف وخمسمائة ليرة ... وبعد مرور أقل من أسبوع كانت تبكى هكذا صباحا ومساء ... تشد فى شعرها الأحمر ويهتز نهداها الكبيران فى عصبية وهى تقص على قصة الجوع الشديد الذى اضطرها يوما أن تبيع فلذة كبدها ... قبل أن تجد عملها هـذا وزوجها وقد أصيب فى عمله ... وما زال إلى اليوم يطالب بمكافأته ... وذهبنا إلى المحكمة المركزية وأثناء دخول رئيس المحكمة سمعت همسا للحاضرين يقول :

ـ إنه الدكتور اسحق كستر المعتاد على النظر فى قضايا بيع الأطفال أو سرقتها .

يا إلهى إذن هذه قضية مطروقة فى هذا البلد وأنا التى تصورت أنها الأولى من نوعها على سطح البسيطة .

نادى عليها رئيس المحكمة وأخذ يناقشها بصبر وتؤدة يسألها عن مكتب الوسيط الذى سلبت له الطفل وعن شركائه و... و...

بكت زميلتى بكاء مريراً وعاد صدرها يهتز كأنه يحاول أن ينفض عنه تلك الأوزار التى تثقـله ... نفد صبرى وأنا أسترجع ببكائها صوت الثكالى من قومى وقلت لعله تعمد تعذيبها حتى لاتعود إلى فعلتها ثانية ، أما رئيس المحكمة فقد تجاهل بكاءها وهو يرفع نظارته من على أنفه المقوسة ثم أسر لها بشىء حين سمعته بحكم جلوسى فى الصف الأول، أحسست ناراً تخرج من أذنى ، فلقد قال لها إن العائلة تعرض خمسمائة ليرة أخرى نظير تنازلك عن القضية .

ومن الغريب أنى لم أدهش طويلا لمثل هذا العرض بل بعد برهة توقعت أنها ستوافق وقلت محدثة نفسى :

ــ إذا كان قاض يعرض هذا العرض فلابد أنه أعلم بنفوس الشعب الذى هو قاضيه ورمز العدالة فيه .

تلاشت النار من أذنى وحل محلها صوت الرجل الذى كان يدرب تلاميذ المدرسة وهو يقول :

ــ أننا شعب الله المختار .

ــ وجهك حلو علىّ نانا ، سألفت نظر مدام كاسيل إلى وجهك هذا حتى تتفاءل به فى كل أمورها .

هكذا قالت لى زميلتى فى العمل وهى تقدم لى كوبا من العصير فى أحد المحلات ...

لأنها على حد قولها أصبحت تتفاءل بوجودى معها . ولم لا ... ؟ ألم يعطها القاضى خمسمائة ليرة يوم خرجت معها ... ؟

ماذا أفعل بليراتى أنا الخمس ... ؟ ؟

سأشترى شالا لأمى ... ولكن مستحيل فلقد تعبت قدماى من اللف والدوران على جميع المحلات فلا شال بهذا الثمن ... هذا الثمن لا يحق لصاحبته أن تطلب الدفء به ...

وكذلك ليراتى لا تساوى ثمن حذاء لها ...

طفت بجميع المحال على اختلاف أجناسها وألوانها ...

تل أبيب تذكرنى بحكايات مربيتى وأنا صغيرة عن ألف ليلة

وليلة ... حين هبط البطل بلداً من البلدان ... كثيرة الأجناس والناس ... فلم يستطع أن يتوافق معهم لكثرة تقاليدهم وعاداتهم ...!! فرحل لعدم التجانس بين سكان المدينة ... ! !

مدام كاسيل باتت هي الأخرى تتفاءل بنانا !

طلبت لي زيادة في المرتب وعملا جديداً يبدأ من العاشرة مساء ... يعتمد على مهارتي كما يقولون ! !

وأنا لا مهارة لي ... مع الزبائن فلقد كان علىّ أن أقدم لكل زائر وردة حمراء وابتسامة . كنت أقدم الوردة وتتقلص شفتاي ولا أستطيع التبسم لأني لا أريد أن أقدم لهم ابتساماتي .

فأنا لا دافع لي على الابتسام ...

الابتسام رد فعل لم يعد له صدى في نفسي .

وفي آخر الليل ... آخر الليل أحاسب صاحب اللوكاندة « يوسف كلين » .

أشم رائحة أمي حولي ... رائحة قومي وإخوتي ، الأموات منهم والأحياء ولا أدري ما سر هذا الإحساس واليوم بالذات حتى أنني كنت أتلفت حولي لعلني أجدها أو أبصر أحداً منهم ، ربما وجدت خالداً أو سمعت صوت ياسر ... عشت كل هذا اليوم وكلي ثقة أن أحداً منهم قريب مني أو أنني سألقاه .

يا إلهي ليتني أجدها لأعطيها فراشي الدافىء وأدثرها بكل الأغطية التي تملكها مدام كاسيل .

تنبهت على وجه يوسف كلين صاحب المكان ينظر إلى شزراً فأسرعت أقدم لمجموعة من الضباط بملابسهم العسكرية الورود ... أشاحوا بوجوههم عنى فتبعتهم وأنا أجاهد نفسى لابتسم ...

تبعتهم إلى البار .

أخذوا منى وردة واحدة وألقوا بمجموعة من الليرات فى يدى ، وقبل أن أغلق قبضة يدى عليها ... رأيت أمامى ...

أمامى أنا ... !

أمام عين رأسى ... ياسر ...

ياسر بشخصه وروحه ... أيمكن أن يكون غير ياسر ؟ ؟ لا ... لا أصدق ...

أبذل مجهوداً عنيفاً لامنع يدى من أن تمسح على جبينه وشعره .. وأسأله عن أحواله وأيامه ... تذكرت يوسف كلين فقدمت لياسر على الفور زهرة وأنا أحدق فى عينيه ... عين ابن عمى الذى غاب عنـــا سنوات . لقد تغيرت ملامحه ... امتلأ قليلا عن ذى قبل ... كدت اهتف باسمه حين نظر إلى بعينيه الثاقبتين من خلف نظارته السوداء الكبيرة . فألجم لسانى على الكلام . فلابد أنه قد غير من أسمه ووطنه مثلما فعلت حتى يحيا هنا .

رفض ياسر قبول زهرتى وأشاح عنى بوجه الهادى ... تقدم منه الخادم . خادم البار يسأله فى أدب عن طلبه ؟

أجابه ياسر بفرنسية عذبة عما يريد ...

وبينما كان الساقى يقدم له مشروبه المفضل وهو يحنى رأسه باحترام أخرج ياسر قفازاً من جيبه وحاول أن يرتديه وفجأة دقت الساعة تمام الثانية عشرة . ولسبب لا أعلمه دق قلبى معها بشدة ثم هوى فى قدمى حين أتمت الساعة دقتها الأخيرة . وما هى إلا برهة كنت أتشاغل أثناءها بتسوية الورود فى تلك السلة الصغيرة. ماهى إلا ومضة وسمعت صوت ثلاث طلقات نارية . ولشدة جزعى كان ياسر هو الذى أطلقها ، وما زال المسدس بين أصابعه يحدق مشدوها فى عامل البار الذى سقط صريعا أمامه ...

انقض عليه مجموعة الضباط الذين كانوا بجواره والذين أعطونى الليرات الكثيرة . انقضوا عليه فى وحشية وأشبعوه ضربا وركلا ثم ساقوه أمامهم إلى عربة جيب كانت أمام الفندق ...

ياحظك العاثر يا ريم ؟ هكذا كل عزيز لى يضيع أمام عينى ... عين رأسى ليتنى ياليتنى لم أره اليوم، ما الذى دفعه إلى القتل العلنى فى مثل هذا الجمع من الإسرائيليين .

لابد أنه سيقتل من الضرب ... ضرب خمسة ضباط دفعة واحدة. أو سينتظرون ليشنق فى أحد الميادين دون محاكمة . أو... أو... أو...

هرج ومرج ساد القاعة كلها ، وتنبهت على صوت يوسف كلين صاحب المكان وسط هذا الخضم من البشر المنزعج يمد لى يده سائلا عما معى من أثر بيع الورد هذه الليلة ... أعطيته كل ما فى جيبى ... كل ما معى وأنا أحس له اشمئزازاً مدمراً .

هذا الرجل خرج عن كونه آدميا ...

رباه أين رحلوا بك يا ياسر ؟ ؟ وفى أى سجن عفن سقفه مقصلة لرأسك الجميل وضعوك فيه ؟ ؟

ياسر .. كانت لى آمال فيه ... فلقد كنت أحتفظ فى قاع مخيلتى وربما أبعد من القاع بصورة دار مسقوفة لنا ... بيت لنا ... بيت لشعبنا .

كراهية ... كراهية ... كراهية سوداء . فأنا لم أعد أعرف أى إحساس سواها فى هذه الحياة أتنفس كرها عميقا ... وقلبى يدق كرها . وعناد كبير يبقينى لأحيا بين هؤلاء بنفوسهم السابحة فى الكفر وأرواحهم الهائمة فى الجحيم ... إحساس منفرد ونادر يملؤنى ويوحى إلى بل يقنعنى بأن جسدى البشرى ذلك الهيكل المحدود قد ذاب وتفتت إلى ذرات صغيرة أعيد لملمتها على شكل هيكل جديد اسمه الكره العظيم ! .

فأصبحت زاهدة فى كل شىء حتى فى أملى الكبير ... أن أرسل شالا لأمى .

تلك الخرساء العارية ...

خمسة أيام الآن وأنا أعانى من الحمى فى صمت . أعلم أن حرارتى تعدت الأربعين ولكنى أرفض أن أبقى فى حجرتى خوفا على نفسى من أن أقول شيئاً عن حقيقتى أو حقيقة ياسر أثناء نومى وأنا محمومة.. إلى أن جمعنا يوسف كلين صاحب اللوكاندة وطلب منى أن أضاعف

من مجهودى اليومى فى العناية بحجرات النزلاء لأن سمعة الفندق بعد حادثة الفدائى الأخيرة آخذة فى التدهور . كما طلب منى أن أكون أكثر نعومة ومرحا أثناء بيع الزهور ليلا .

سحبتنى مدام كاسيل من يدى وهى تقول لى .

ـــ ألم تفهمى ما الذى يرمى إليه جوزيف ؟ ؟

ـــ لا لم أفهم أكثر مما قال تماما .

ـــ يا بلهاء اليوم وكل يوم ...

ثم علمتنى ما الذى يريده منى صاحب العمل ...حتى أرضى النزلاء.

مثل هذه الأمور لاعيب فيها على الإطلاق هنا ... بل العيب كل العيب غير هذا ... فلقد تعبت عيناى من كثرة ما أرى فى الشوارع والحدائق من ضروب الأمور التى أستحى من مجرد عبورها فى مخيلتى المحمومة .

لافرق بينهم وبين البهائم فى حظائرهم ... تبا لهذا الرجل ماذا يريد منى أكثر مما أعمل ؟ .

إننى أخاف من مجرد الوقوف مع هؤلاء النزلاء فى حجراتهم . فهذا الكابتن مزراحى يحلو له أن يغرق ويستغرق فى الخمر إلى حدالثمالة ثم يبكى على حياة سابقة له فى لندن تركها وكله أمل فى حياةهنا أفضل. ولكن هذا الأمل تحطم على صخرة الواقع المرير فى إسرائيل ، فكان يصب جام فشله فى كأس لا نهاية لها ، ويبكى على مجتمع كان لا يشعر بالغربة فيه ، وحياة كريمة كان فيها يشعر بآدميته السليبة . فهو هنا كما

قال لى مرات ومرات يعمل كعجلة فى آلة كبيرة ... وهذه الآلة تستمد قوتها من الماكينة الأم فى الغرب حيث الصهيونية العالمية التى زينت له طريق المجىء إلى بلادنا .

أما الجنرال كوهين فكان كل ليلة ينقلب إلى طفل عابث يطلق أعيرة نارية من مسدس لعبة اشتراه لابنه الذى يعيش فى أمريكا مع والدته التى رفضت المجىء معه ...

أما القبطان شلهوب فكان يحب أن يخلق من كل امرأة أماً له كالتى تركها هو الآخر جريا وبحثا عن أرض الاحلام. ولما لم يستطع العودة وكذلك لم يجد بديلا لحنان أمه الارض وأمه التى ولدته ، فكان يدق الجرس طول النهار والليل معا ليستدعى أى خادمة ويضع رأسه على كتفها كطفل كبير ... ثم ينفحها مالا كثيراً ... ضياع فى أشكالهم وألوانهم ... لانهم ضاعوا فى مجتمع شاذ لاتراث له ولا معنى ... مجرد مجموعة من أفراد ... ؟ أكبر مجموعة من الاجناس المختلفة ...

فلقد كان أغلب نزلاء هذا الفندق من الضباط الذى يعيشون فى تل أبيب بعيدين عن أسرهم .

أنبض كرهاً مريراً ... والكابتن مزراحى يضع يده على ظهرى ورائحة الخمر تفوح وتفوح من فمه ...

وحان موعد بكائه اليومى على حياته فى لندن . فأجلسنى قبالته على طرف مخدعه . والكره مازال يعربد فى قلبى المتضخم . كان مزراحى فى قوام ياسر ، نفس الابعاد ... ظل يتكلم ويتكلم إلى أن

غلبه النعاس . فألقى بظهره على الوسادة . كان له جسد ياسر ... نفس الأبعاد .

وكان له كذلك مسدس معلق حـــول وسطه ، وفى سرعة البرق كنت أرى ياسراً ممتداً مثله تماما ... ولكنه فاقد الحياة من قسوة تعذيبهم .

وهذا المزراحى المغتصب ما زال صدره يعلو ويهبط بانتظام أمامى ، صاحب الحق يموت ركلا بالأقدام لأنه يريد حقه ، ووريم بجواره تسمع مأساته وتواسيه ... والسارق ينام منعما هادئا ...

لم أشعر بنفسى إلا وقد صوبت فوهة المسدس فى بطنه وضغطت على الزناد بقوة ثم وضعت المسدس مكانه وكفأته نائما على وجهه ... لم أنس أن أمسح بصماتى بطرف ثوبى الأنيق .

كل هذا مر فى لمح البرق وكأنى لست أنا التى فعلت كل هذا ومما زادنى اطمئنانا أن موسيقى البار فى الدور الأول عالية كعادتها .

عالية وصاخبة جداً ربما تنجح هذه الموسيقى فى أن تفرحهم وتنسيهم أنهم يعيشون فى مجتمع بلا ماض ولا حاضر ولا مستقبل .

مجتمع بلا تجانس ... كانوا يحسون فيه مرارة الضياع فى بهيم صحراء مظلمة .

أى ثبات هذا الذى انتابنى فجأة وأنا أنفذ فعلتى هذه ونزلت الدرج محتضنة سلة الزهور باليسرى والجنرال كوهين بذراعى اليمنى فحين خرجت من حجرة الأول بعد أن أفرغت فيه الطلقات دخلت

حجرة كوهين لعلى أنه مخمور كالعادة ... وحين تنبه لوجودى قلت له إننى هنا منذ أكثر من ساعة .

أنتظرك ... أنتظرك يا حى الكبير .

وطوال الليل كنت أبعثر ابتساماتى هنا وهناك وحتى بلا مقابل لمن يشترى ومن لا يشترى ... ابتسامة واسعة جداً .

الفصل العاشر

لقاء القسم

عجبي ... عجبي يا إلهي من هؤلاء ، وأي مصير يدفعني إلى البقاء بينهم ... فلقد أيقظتني مدام كاسيل مبكرة جداً على غير عادتها ثم طلبت مني التوجه إلى الحمام، وحين عدت كانت هناك علبة مزركشة موضوعة على فراشي !

بداخلها جلد جديد لي ... ! !

نعم بداخلها ثوب أو بعض من ثوب جديد لي ، ليصنع مني فتاة أخرى يتمناها يوسف . وعلى عتبة البرلا استقبلني هاشا باشا ... قبل يدي على الطريقة الفرنسية وقال إنه لن يأخذ مني ليرة واحدة لقاء بيع الزهور ... كل ما أبيعه لي وحدي ... ! !

عجبي ... عجبي يا إلهي من هؤلاء !! ... وعند الكلمة الأخيرة تملكتني حيرة كبرى فماذا أقول ... ؟ ؟

عجبي من هؤلاء الناس ! أم عجبي من هؤلاء الأوغاد . أم من ماذا ؟ ! !

ذاكرتي خاوية تماماً فأنا لا أعرف لهم إسما أناديهم به وينطبق عليهم تماماً ، ليس أكثر من أن أقول :

— عجبي من هؤلاء الذئاب الذين استحلوا دم كل نبي وطاهر وكل شعب وقوم .

والذئات تفرح لسفك مزيد من الدماء الجديدة ... ويوسف فرح لان فندقه لم يعد يستقبل أى نزلاء فلقد وقع اختيار أحد المسئولين فى البوليس عليه ليكون مكانا لاستقبال بعض الشخصيات العزيزة التى تحب تل أبيب أن تبالغ فى إكرامهم بطريقتهم الشهيرة ...

الاوامر تتشكل وتتغير كل يوم من مدير الامن فى تل أبيب ... فلقد أمر بتخصيص دور كامل للنزلاء الموصى عليهم على أن يدير يوسف الدور الارضى كما كان حتى لا تثار الشبهات حوله وعلى هذا الأساس وضعت سلطات الأمن سيدتين على جانب من الجمال الصناعى لخدمة النزيل الموصى عليه ... مدام كاسيل دائماً توصينى بالاهتمام بنفسى بجمالى حتى أتمكن مع مرور الايام أن أعمل تحت خدمة السيدتين جانيت وسارة ...

هى توصينى بجمالى وهى لا تعلم أننى فقدت وجهى وملامحى تماما حين تشوه وجه مدينتى . أحس كأن وجهى ... وجهه لدمية رأسها مشنوقة ولكنها مع ذلك تبتسم .

نعم أبتسم بفهم كبير ... فأنا أعرف الآن متى أبتسم ومتى أضحك ومتى أقهقه .

الجنرال كوهين أتعب رأسى المشنوقة من ثقل رأسه الضخم على كتفى . ويحك أيها الرجل . . فكم أكره رائحة الخمر التى تفوح من تلك الحفرة التى تتوسط وجهك ...

ولكن لا يهم .

لايهم البتة . كلها ثوان وتعلو الموسيقى بعد منتصف الليل وأفرغ فى بطنك العريض طلقتين يا عزيزى . فلكم أوحشنى النيل منكم .

وحق ياسر على لابد أن أنال منك الليلة لأن ياسر كان فى عمر ولد لك ... فهل يجوز أن يقتل الولد وتبقى أنت بجشمك الذى دفعك أن تأتى هنا لتأخذ بيتاً لك فى أرض الأحلام كما صور لك خيالك وخيال صانعى هذه الأسطورة .

أحسست المسدس صلباً بارداً وهو يحتضننى بقوة كأنه يكافح ليخبئنى فى بطنه العريض .

احتضنته بقوة وهدوء ... وبود كبير كانت الطلقات الثلاث تخترق الجدار المنتفخ بينى وبينه ... الموسيقى رفيقتى فى كل فعلة تدق وتدق فى إصرار صادق بأن يعلو صوتها على صوت الرصاص ... سقط على السرير وبسرعة كبيرة استبدلت بلعبة المسدس الموضوعة بجواره الحقيق المتدلى من وسطه حتى يظنوا أنه أخطأ فى التفريق بين الإثنين . وهممت أن أستدير حين برز من خلف الدولاب رجل وساعتها لم أشعر بشىء كنت فى حالة أشبه ما تكون بحالة انعدام الوزن من هول المفاجأة وبقيت لثوان هكذا لا أعى من حولى شيئا .

عاد إلى اليقين وهو يحتضننى بقوة وعطف ... لقد كان ياسر الذى هتف قائلا :

— لكم أنا عاتب على نفسى يا ريم لقد ظلمتك ... اهربى ... اهربى فأنت فى خطر لابد أنهم سيكتشفون حقيقتك ، ثم قال :

— فى الغد قابلينى أمام مبنى البوستة لأهيء لك هرباً ...

أجمل غد ... غـدى أنا .

أكثر كثيراً من وضع المساحيق على وجهى الضاحك ... أحب أن أطلق كلمة بقايا ثوب على هذا الذى سأرتديه لأنه عار ... عار جداً .

راضية عن نفسى تماماً فهكذا أنا أبدو كواحدة منهن تتسكع مع أحد الرجال على أرصفة تل أبيب وياسر متنكر هو الآخر فى قيص زاهى اللون ونظارته السوداء الـكبيرة ، قلت له .

— لـكم أوحشنى العقال على رأسك ... أنك هكـذا ممسوخ .

ضحك وهو يشرح لى كيفية الهرب عبر حدود تل أبيب ورفض كل محاولاتى ورجائى فى أن أنضم إلى منظمة العاصفة التى يعمل بها . تعبت من استجدائه أكثر من مرة وهو مصمم على موقفه منى ... كان ينظر فى عينى بين الفينة والفينة ويقول :

— من عينيك أحيا ماضى فى يافا يا ريم ... أتذكرين البيارة وشجرة الليمون . وعنادك الذى لا يقاوم . أتذكرين حين كنت أحملك بين ذراعى لنصعد الجبل ونتزل السفح . لنأكل ونشرب كل فاكهة حتى قبل أن تنضج ... !؟

نعم أذكر يا ياسر أحس بك وبمدينتنا الضائعة . أحس كل شىء وأتمنى البيت البعيد والشجيرات تلتف حوله .

لحظات أودعناها كل ما لدينا من حب وذكريات ... فلا حق لنا إلا فى ذكرياتنا البعيدة من يوم أن ماتت الحقيقة والأسطورة فى بلادنا . عدت أستجدى ياسراً بلا فائدة . وأخيراً كان وداعه لى مقتضباً سريعاً ومشى خطوات بعيداً عنى لا يلتفت خلفه ...

لم أشعر بنفسى إلا وأنا أتبعه خفية وكلى تصميم أن أعرف مكانه... ظل يمشى هكذا مدة طويلة من شارع إلى آخر ويدخل من باب بناية ليخرج من الجانب الآخر فيها ثم يركب الأتوبيس والترام ويعود ليمشى كثيراً ثم توقف مرة ليشترى صحيفة الدافار العبرية . ومرة أخرى توقف أمام أحد المحال التى تبيع التبغ ، توقف يبغى علبة ، انتظرته فى الخارج ثم تقدمت خلفه بضع خطوات وماهى إلا لحظات حتى دلف خلف الحاجز الذى يفصله عن البائع واختفى تماما .

أخرجت من فمى صرخة مكتومة حين اكتشفت مكانه . وفى أقل من ومضة كان أحدهم يقذفنى خلفه . ووجدت نفسى أقف على أولى درجات السلم وهابطاً أمامى ياسر وخلفى رجل لا أعرفه . نزل ياسر فتبعته . وفى آخر الدرج مشينا يمينا . وجدت نفسى فى حجرة تتوسطها مائدة خضراء وحولها مجموعة كبيرة من الرجال . تقدم الرجل الواقف خلفى ووثق ياسر من يديه موجهاً إليه تهمة الخيانة العظمى ؟

كانت الحمم تكاد تتطاير من عينيه الغاضبتين وهو يوجه إلى ياسر أعنف الاتهامات وأبشعها .

قطع ياسر كلامه بعد أن نظر إلى وأخرج زفرة ضيق من شفتيه أحسست لها وقع السقوط فى جسدى وشرح لهم صلتى به وأحسست بوجهه العابس ينفرج وهو يروى لهم قصة قتلى للجنرال كوهين فى الأمس... و... و...

تزاحموا جميعاً ليشدوا على يدى مهنئين ؟

طلبت منهم على الفور أن أنضم إلى منظمتهم وأكون تحت خدمتهم قبلنى ياسر بإجماع إخوانه ، وسمعته يحدث نفسه قائلا :

طول عمرك عنيدة عنيدة ... مكابرة ريم لا تهدئين .

رويت لهم مالاقيته فى القدس وفى مخيمات اللاجئين . وبكيت وأنا أقص عليهم ما آل إليه حال إخوتى وأمى ... ثم قصة المسترجون سميث الذى تطوع بإحضارى إلى تل أبيب من فرط حبه لى لأنى أشبه ابنته التى ماتت فى كوريا ... كانوا يستمعون إلى كل ما أقول بانتباه عجيب وأنا أسرد لهم وقائع حياتى اليومية فى فندق البرلا وقصة مدير الأمن فى طلبه إخلاء الدور العلوى للشخصيات الموصى عليها و ... و ...

لم أنس قبل أن أتركهم عائدة إلى مدام كاسيل أن أسأل ياسراً كيف استطاع الهرب يوم القبض عليه فى البار ؟ ولماذا قتل الساقى ... ؟

ضحكوا جميعاً . ضحكوا بلا صوت خوفاً من أن يسمعهم أحد . وفهمت أن الاعتداء على ياسر يومها لم يكن إلا خدعة من الواقفين بجواره متنكرين فى زى ضباط إسرائيليين ... وأشار لى ياسر إليهم .

نعم ... نعم هؤلاء من أعطونى الليرات الكثيرة .

وهممت أن أمد يدى لأصافحهم عائدة حتى لا تلحظ مدام كاسيل غيابى ؛ ولكن ياسر أبقى يدى فى يده وقال :

— كل من ينضم يحلف اليمين ... يحلف بالله ... بالوطن السليب ... يحلف بشهدائنا فى قبورهم ، وبشهدائنا الملقين هنا وهناك بغير قبور .

اقسمى يا ريم ... اقسمى .

دموعى تغرق وجهى وأنا أقسم ومازالت أطراف أصابعى المضطربة محتمية بكف ياسر القوية .

وكانت لنا كلمة سر اتفقنا عليها ...

عدت أدراجى إلى حجرة مدام كاسيل . كانت الساعة تمام الثانية عشرة ظهراً . وهذا اليوم بالذات عطلة بالنسبة لى ولكنى غادرتها وهى ما زالت نائمة تغط فى شخيرها الذى يذكرنى بصوت الضفادع حول البيارة فى يافا ... كان شخيرها يثير ضحكى وشجونى ...

ضحكى حين أتذكر نفسى وأنا أغـــرق الضفادع فى إناء به مادة الميكركروم المطهرة فتتلون باللون الأحمر ...كنت أعمل هذا حتى لاتختلط ضفادعى بضفادع صديقاتى اللاتى تأتين للعب معى ، فلكم كنت أكره أن يأخذنها منى ... أما وقد أصبح لونها أحمر فلا يمكن لإحداهن أن تهرب بعيداً عن بيارتى .

وكان شخيرها يثير شجونى لأنها تجعلنى أستغرق فى تلك الأمنية اللانهائيه بأن أستطيع يوماً أن أغرقها فى إناء به ماء نار .

المستر يوسف كلين ومدام كاسيل وأغلب العاملين فى البرلا أجمعوا أمام رجال البوليس والأمن والنيابة أنهم سمعوا أكثر من مرة طلقات نارية فى حجرة الجنرال كوهين قبل أن يموت ... وأنها كانت صادرة من تلك المسدسات المقلدة التى يهوى شراؤها لابنه فى أمريكا ... واستنتجوا جميعاً أن ما حدث له كان نتيجة خلط بين اللعبة والحقيقة ... ثم أغلق المحضر عند هذا ... ولكنى شعرت أن هناك من يراقب ويحاول أن يعرف شيئاً آخر غير الذى تظاهروا بالاقتناع به .

أغالى فى وضع المساحيق على وجهى الرقيق ... لأدارى بها مايعتلج فى صدرى من ضيق بسبب عدم اتصال المنظمة بى .

أيعقل أن يكذبوا على ويستبعدونى من عملياتهم ؟ . الضيق تطفح به قسمات وجهى الدقيقة ... والباب يدق دقاً خفيفاً متواصلا ... صرخت بعصبية آمر الطارق أن يدخل ... كان عامل المصعد يستعجلنى فاليـوم غير عادى ... لدينا شخصية كبيرة !

أطفئت أنوار مدخل الفندق عند دخول الضيف ودقت الموسيقى عالية وتعالت الضحكات الناعمة فى الدور العلوى كانتا جانيت وسارة .

اندفعت إلى الدور العلوى أبغى رؤية الضيف التى تبالغ الحـكومة برجالها فى إكرامه ... حتى يمكننى كذلك أن أدلى باسمه للمنظمة ... كان الصمت والهدوء يخيمان على الدور كله إلا منصوت موسيقى حالمة وخفيفة تنبعث من إحدى الحجرات .

اقتربت على أظافرى من ثقب الباب ونظرت ، لم أجد أحداً ، فتحت الباب وانسللت داخل الحجرة وتتبعت بأذنى مبعث الصوت .

من ثقب الباب رأيت ظهراً لرجل يدخن السيجار بـكثرة ويصنع منه سحباً كثيرة حول رأسه كأنه يدارى بها شخصيته ، ومن خلفه يقف يوسف كلين متضائلا ... وعلى كرسى بعيد كانت سارة جالسة تحتسى كأسا من الخمر . وكانت هناك كذلك امرأة أخرى فى ملابس راهبة لأول نظرة لم أستطع أن أتعرف عليها أو هكذا أردت .. لا أدرى تماماً .

بقيت فى وقفتى هذه أحدق فى ظهر الرجـــل الذى أمامى وأحدق

فى الراهبة التى أخذت تخلع ملابسها قطعة قطعة على أنغام هذه الموسيق وكأنها فى خلوة منفردة بلا أى إنسان آخر .

والسحب البيضاء تزداد وتزداد حول رأس الواقف أمامى حتى كادت تحجب الرؤية عن عينى المشدوهة .

رباه ... بعد دقيقتين على الأكثر عرفت فى تلك الراهبة جانيت الغانية .

كانت تقوم بهذا العرض على سبيل الترفيه للشخصية الهامة التى انتابتها حالة عجيبة من الضحك المتواصل ... اختفت الراهبة من أمام عينيه فجرى وراءها وهو يصيح قائلا وقد فتح ذراعيه :

— تعالى ... تعالى فى أحضان أبينا لأخلصك من خطاياك ياأخت جانيت .

ضج الجميع بالضحك ... وهنا استطعت أن أبصر وجه الرجل ... لقد عرفته أنه أحد زعماء حزب الماباى الإسرائيلى .

آه لقد تذكرت هذا الرجل ، تظهر صورته فى الصحف اليومية يتكلم عن الماباى ، يفخر أنه رئيس تحرير الدافار الناطقة بلسان الحزب .

لكم عز على أن يسخروا من تلك الأقلية الموجودة فى إسرائيل . أن يسخروا منهم ويهينوهم إلى هذه الدرجة ... فصوروا الراهبة المتعبدة ابتغاء وجه الله ، صوروها غانية تتخبط فى هاوية الدروب .

وهنا تذكرت الضابط حين كنت أعمل مساعدة ضابط فى المدرسة وهو يقول للتلاميذ .

نحن شعب الله المختار .

لحظات توقف فيها عقلى عن التفكير ، وقدر كبير من الندم يزحف إلى قلبى المفجوع .

ندم لأنى جعلت نفسى أرى ما رأيت الليلة .

هؤلاء القوم لا حرمة لهم .

حفنة من الناس استباحوا دم يوحنا المعمدان وهو يعبر النهر ولم يرحموا من جاء بعده أو من كان قبله .

ومع ذلك مع كل هذا فهم على ثقة كبرى بأنهم شعب الله المختار !

يد قوية وضعت على ظهرى المتقوس من كثرة ما حمل !

كانت يد رجل .

يد باردة .

برودة الأكذوبة الكبرى بأنهم شعب الله المختار .

أصابع رجل كاذب .. فتلفت خلفى كان صاحب المكان يوسف كلين يعرض على أن أطارحه الهوى !

فى حجرتى وحيدة كنت أريد أن أصرخ مما رأيت ، أن أبكى حسرة ولكن الأصوات .. كل الأصوات انتحرت ضيقا فى حلقى ..

الفصل الحادى عشر

نقطة التحول

مر أكثر من عشرة أيام كأنها عمر مولد الخليقة جمعاء ... عشرة أيام وأنا سجينة فى هذا الفندق ...

سجينة أنتمى إلى قافلة الاحتجاج الدامى الموجودة بطريقة ما هنا وهناك ...

الأفعال أقصى من أن تكون موضوع بحث منطق . . فأنا لاأرى للمنظمة منطقاً فى تجاهلها لى.. الساعة قاربت العاشرة موعد بيع الزهور...

فبينما كنت ألوك سخطى وأنا أصعد الدرج لأبحث عن الرجل الذى يسلمنى الزهور اليومية لأبيعها إذ وجدته أمامى يقطع طريق الضجر الطويل الذى كنت أنوى أن أقطعه إليه لأصب على رأسه كل ضيق وضياعى..

وأين وردتى السوداء يانانا ؟!!

تنبهت على هذه الكلمة الوردة السوداء كلمة السر التى اتفقنا عليها .. ثم تسلمنى مجموعة الزهور والسلة ... وفى حجرتى وحيدة كنت أعـــد الساعات حتى مطلع الفجر لأذهب إلى هنـاك . . سلـكت نفس الطريق السابق تقريباً إلى أن وجدت ذاتى مرة أخرى أهبط الدرج الموجود خلف الحاجز لأصل إلى أعضاء المنظمة ...

كانوا جالسين حول تلك المائدة بعينها وأمامهم خريطة كبيرة لوطننا السليب .

لقد كانوا يدبرون هجوماً كبيراً على دورية كاملة من الإسرائيليين. فنظرت بعينى هنا وهناك ... وكعادتى لم أستطع أن أقاوم رغبة الكلام معهم ...

وتكلمنا كثيراً وناقشنا فكرة الهجوم وكانت لى بعض النقاط التى أثارت إعجابهم ووصفونى باليقظةالكبيرة . ثم أخذ ياسريشرح طريقة استعمال آلة التصويرلأصوربها كل ما يطلب منى، وكذلك طريقة استعمال مسجل الصوت لا يزيد حجمه على علبة الثقاب الصغيرة . ثم انتقل إلى مرحلة شرح الأسلحة وكيفيه استعمالها بأقصى سرعة .

من استعمال الطبنجة إلى القنبلة الموقوته ، ثم أخيراً قراءة الشفرة حتى يمكننى قراءة بعض المستندات ... تعلمت فى ذلك اليوم أشياء كثيرة لم أكن أتوقع أن يستوعبها عقلى بهذه السرعة الفائقة ...

ولكنها الرغبة الخالدة التى تدق رأسى ليل نهار ... الرغبة الشرعية فى استرجاع وطننا السليب ... طفت أتجول فى هذا المكان ، كان عبارة عن حجرة كبيرة ملحق بها أخرى صغيرة موضوع بها بعض الصناديق الخشبية وأدوات كثيرة لتضميد الجروح ... فتحت الصناديق كان بها علب لأسماك محفوظة أو شىء يشبه ذلك ... وفى الجانب الآخر كانت هناك مائدة عليها زجاجات كثيرة زجاجات عرفتها على التو واللحظة من وقفتى فى بار البرلا ... وبعض الكئوس ملقاه هنا وهناك فارغة ... ونظر أحدهم إلى وهو يضحك ثم أفهمنى أن هذه الزجاجات مملوءة بالمواد المطهرة وبعض العقاقير الأخرى ، ولكنهم وضعوها

هنا التضليل حتى يعطوا لهذا المكان جواً مغايراً لحقيقته ويقارب جو الحانات الموجودة فى شوارع تل أبيب . أما صناديق العلب المحفوظة فما هى إلا صناديق لبعض الأسلحة والمتفجرات التى يستعملونها ، وقد غطوها بالمعلبات والشاى المجفف ... و ... و ...

كلمة السر استبدلوا بها أخرى زيادة فى الاحتياط ... ودعنى ياسر وهو يقول لى إنه ينوى القيام بإحدى العمليات الليلية وعليه بعد ذلك أن يعود مرة أخرى إلى الصحراء بين رفاقه هناك يوجههم ويخطط معهم ويختفى عن الأنظار فى آن واحد ... فالواحد فيهم لا قيمة لوجوده فى أى مكان بعد انتهاء عمليته . يجب أن يتركه منسحبا إلى المقر الأم ليخطط من جديد على أن يقوم غيره بالتنفيذ تحت إشرافه .

كانت فرحتى ببدء عملى فى المنظمة أشد عمقاً من خوفى على ياسر فى هذه الليلة .

أعد وأعد خطواتى لأصل إلى الفندق وانتظر مجىء أحدهم . واحد من ضيوفنا الكبار ... الطريق طويل ... والخطوات كثيرة جداً وأنا أسمع وقع أقدام خفيفة خلفى فأراوغ هنا وهناك كحبة لؤلؤ انفرطت من عقدها لتتقاذفها بعض الأقدام ... وتتبعها أقدام أخرى . . لم تفلح محاولاتى فى الهروب من تلك الأقدام الرتيبة إلى أن وجدت صاحبها بجوارى تماما يهمس فى أذنى بكلمة السر .

تخدر لذيذ ذكرنى بأيامى الخوالى فى يافا وأنا نائمة على الرمال تحت إحدى شجرات البيارة المفقودة . ومن يومها تعلمت ألا أقلق

من كل من يتبعنى .. فأعضاء المنظمة دائماً منتشرون يراقبون بعض الناس ويحفظون الأماكن فى مخيلاتهم ليعدوا عدتهم لخط سير الهدف الذى يعملون من أجله .

مرحى .. مرحى فعندنا اليوم بعض الزوار المهمين .

بدت لى عين يوسف كلين أكثر اتساعاً من كل يوم من كثرة ما كان ينظر فى كل ركن من أركان الفندق ليعيد تجهيزه فهم يجزلون له العطاء فى مثل هذه الليالى ... غير الاسم والمركز اللذين بات ينعم بهما فى أوساط رجال الأمن ووزارة الخارجية .

طلب منى يوسف أن أستدعى على الفـــور جانيت وسارة من منزلهما ليكونا فى خدمة الدور العلوى كالمعتاد ... لقد كانتا تضفيان على المكان جمالا وبهجة بلا ضجيج ... ليشعرا الزائر أنه فى حضرة مضيفتين من الطراز الأول ... فالزهور منتشرة فى الأماكن، والإضاءة خافتة ... إلى أن يحين موعد العشاء ... فتستخدما الشموع ... فقط .. أما الموسيقى فدائماً حالمة وأصواتهما خافتة ، تتحركان حول الضيف كفراشات نهمة إلى رحيق الزهرة ... أى زهرة !

كانتا تجيدان أكثر من لغة ويمكن للضيف أن يطرق معهما أى موضوع ليتحدثا فيه بطلاقة ودراية كبرى ... وفى أول الأمر كنت أسأل نفسى كثيراً عن ضرورة أن تكونا ملمتين بكل هـذه الأمور الداخلية فزوارنا أغلبهم إسرائيليون يعملون فى الحكومة نفسها فما ضرورة مناقشتهم فى أمورهم بهذا الأسلوب الناعم ؟ . ولم يدم تساؤلى

كثيراً ... بعد ذلك فلقد عرفت من سماعى لإحدى مكالماتهما التليفونية أنهما تعمـــلان لصالح حزب الماباى وكل منهما تحاول أن تـكشف ما إذا كان الضيف مؤمناً بالحزب وإلى أى مدى ، أو أن له اتجاهات أخرى ... أو ... أو ذلك الحزب اللادينى فى عقيدته الأولى وهو يعمل بكل طاقاته للقضاء على الأحزاب الأخرى مثل الـكتلة أو اليسار العمالى أو .. أو .. فى أثناء أحاديثهم الخافتة هـذه كنت أتسلل إلى تلك الحجرة الجانبية التى يترك الضيف فيها معطفه وحقيبته ... أفتح الحقيبة على عجل وأقلب الأوراق وألتقط الصور ثم أضع مرة أخرى الـكاميرا فى السلة وأغطيها بالورود ثم يأتى العامل فيأخذها منى بحجة إعادة تنسيقها ... ظللت هكذا أعمل أكثر من أسبوعين فى التقـاط الصور من تلك الحقائب التى يأتى بها رجال تابعون للحزب أو غـــير تابعين ... وكان أغلبهم من رجال الأمن الذين كانت حقائبهم تحوى فى أحيان كثيرة قائمة بأسماء الأشخاص الذين يشكون أنهم ينتمون إلى إحدى تلك المنظمات ... وفى مرة أخرى كان هناك تقرير من أحد الضيوف عن وجود بعض هؤلاء الفدائيين فى الجانب الغربى من تل أبيب أو أنهم يعتقدون أن مقرهم الرئيسى فى منطقة اللد التى يكثر فيها العرب بعد أن هجروا ديارهم ونزحوا إلى تلك البلاد .

اليوم هو عطلتى الأسبوعية وكان على تبعـا للتعليمات أن تبدو تصرفاتى طبيعية جداً كأى فتاة تعمل خادمة فى فندق فى الصباح وبائعة ورد فى المساء ... و ...

فاقترحت أنا على مدام كاسيل أن نقضى هذا اليوم فى التفرج على واجهات المحلات ... فوافقتنى على الفور .

كنت ألوك فى فمى الضجر كعادتى وأنا أسير بجوارها فى شوارع تل أبيب الأنيقة .

بواجهات محلاتها التى تسيل لعاب السخاء .

ضجر مصدره الأرصفة ومبانى البلدة وعربات الأتوبيس ! كل ما يعطى أبعاداً لمدينتهم الظالمة .

مدينتهم وجه لرجل يعمل مضحكاً فى سيرك كبير ... يخرج لى لسانه بين الفينة والفنية .

هكذا كنت أحس بالبلدة التى أسير على أرضها ... أحس بأنها وجه كثير الألوان والأصباغ ... من كثرة الأجناس الموجودة فيها .

أجناس تخفى حقيقة ُخلقها تحت إسم يهودى الديانة ...

وهذا الوجه المشوه يخرج لى لسانه ! ولم لا ؟ ألم يلق بنا فى غياهب الجوع والعراء لتحرقنا الصحراء ثم تسحقنا حرمانا تذروه الرياح فى كل مكان لتصنع منا بقايا قوم ... بقايا عليلة دامعة العين لا تبصر من كثرة ما بكت على أطلالها ...

كانت مدام كاسيل كعادتها تثرثر بجوارى طول الطريق تحكى لى عن كل ما يخطر ببالها ... وفجأة اقترحت أن ندخل لنتفرج على أحد الأفلام الرخيصة التى تعرضها أغلب دور الخيالة فى البلدة ... فوافقتها

على الفور فلقد كنت على وشك البكاء من كثرة الحزن ... فقلت لنفسى : حتى يتسنى لى البكاء أثناء الظلام ...

لاحظت أحدهم يلتقط بسرعة رقم مقعدينا ... !! وفى الظلام الداكن أحسست به يجلس بجوارى ثم نطق بصوت خفيض بكلمة السر، عرفت فيه على الفور أحد العاملين فى المنظمة ثم دس فى يدى ورقة صغيرة ...

استأذنت مدام كاسيل فى الذهاب إلى دورة المياه ... لم تسمعنى ... كانت مشغولة بكل حواسها فى النظر بنهم لا تعرف له حدود إلى مشاهد الفيلم . فلم تشعر بى وبقى هو فى مكانه ... قرأت الورقة على الفور ثم ألقيت بها بعد أن سحقتها ... كانوا يطلبون منى الحضور على الفور على أن أتبع « جاسم » هكذا كان اسمه فى طريق ذهابى إليهم ...

وبسرعة كتبت أنا الأخرى ورقة صغيرة قلت فيها :

— افعل شيئاً ينقذنى — موعد عملى بعد ساعة ...

كتبت هذه الكلمات لأنى أعرف استحالة ذهابى ولأن الوقت كذلك ضاع مع مدام كاسيل ولا محالة من العودة معها حتى لا أثير شكوكها ...

تركت الورقة تسقط منى فى الظلام أمام قدميه ... وقرب انتهاء العرض عاد مرة اخرى وفى يديه أنواع كثيرة من الحلوى قدمها أولا إلى مدام كاسيل التى بدورها التفتت إلى فوضعت على الفور ابتسامة

واسعة على شفق وأنا أهز لها رأسى امتنانا لتأخذ الحلوى من جاسم ..
وبعد دقائق أخرى كان يشير للساقى أن يقدم لنا شيئاً نشربه ...

فرحة راقصة كانت تطل من عين مدام كاسيل .. رأيتها برغم الظلام المحيط بنا وجاسم تمادى إلى ماهو أبعد من ذلك حين احتضن يدى وأخذ يقبلها ليسمع مدام كاسيل .

كان عليه أن يبـــدو أمام عينيها أنه يبغى مأربا منى وكان على أنا الأخرى أن أبدو راضية .. إلى أن انتهى العرض ، وهنا أخذ جاسم يدعونا للعشاء فى مطعم الحصان الأبيض عند منعطف نهاية الشارع ...

تظاهرت بالرفض الأكيد خوفا على عملى .. ولكنها أشارت لى بطرف عينيها أن أقبل دعوته ... وهمت هى بالاستئذان ولكنه أمسكها وأصر أن تذهب معنا ... وحول المـــائدة . كان يحدثنا فى موضوعات كثيرة ، وحين سألته عن اسمه قال :

— ميشيل سلامون فرنسى الجنسية ويعمل فى شركة لمستحضرات التجميل .

وهنا انهالت عليه مدام كاسيل بالأسئلة والاستفسارات عن آخر ما وصلت إليه المساحيق فى مداراة التجاعيد وما يمكن أن يغنيها عن إجراء جراحة لوجهها و . . . و . .

كان اختياره لهـــذا العمل موفقا للغاية فلم تكتف بالأسئلة بل استكتبته ورقة ليحضر لها من باريس كل ما ذكر من أنواع . .

وهو بدوره يؤكد لها أن كل ما طلبته سيكون لديها فى خلال عشرة

أيام مع أحد أصدقائه القادمين إلى تل أبيب . . ثم التفت إلى مرة أخرى يبثنى إعجابه الشديد ويتحسس ذراعى فهممت أن أستأذن متظاهرة بالخوف من ثورة يوسف على ولكنها أجلستنى بقوة وهى تقول :

— لا تعيرى يوسف أدنى اهتمام ... اعملى على إرضاء ميشيل واتركى لى يوسف .

ثم ذهبت عنا . .

أحسست ثقلا أزيح عن صدرى وأنا أتبع « جاسم » فى طريق وصولى إلى المنظمة . كان يسلك طريقاً جديداً غير الذى أعرفه . وهناك فى هذا المكان الجديد كانت جميع الوجوه التى أعرفها تنتظرنى على أحر من الجمر . . ثم قالوا لى أن بعض المستندات التى قمت بتصويرها من حقيبة أحد مديرى المخابرات كانت تقول :

أولا : أنه لابد من تطويق منطقـــة نابلس وضربها لأنها مقر للفدائيين . . وهذا المستند لم يعمل به للآن لسبب واحد وهو سفر وزير الدفاع الإسرائيلى إلى أمريكا لأمر من الأمور .

ثانياً : وهو الأكثر أهمية من الـــكلام السابق أن الفدائيين مجموعة طفيلية التكوين هامشية الأضرار لا تأخذ من تفكير الحكومة الإسرائيلية أكثر مما يستغرقه إنسان فى شرب كوب ماء . ثم قالوا لى :

— إن هذه المذكرة هى الأخرى سترسل إلى هيئة الأمم وهى تعقد دورتها فى هذه السنة للنظر فى بعض المشاكل التى من بينها مشكلة فلسطين ...

وبديهي ياريم أن مثل هذه المذكرة يحاولون بها أن يصوروا أنه ليست هناك مشكلة يحس بها الفلسطينيون تحتاج إلى نظر أو بت ولكنها جماعة لا تمثل شعباً ، وأعمالها هامشية لا تستحق الاهتمام وبهذه الطريقة ياريم ... لا تنظر مشكلتنا مهما حاولنا ومن ثم قررنا أن تكون لنا أعمال أكثر إيجابية وفاعلية داخل تل أبيب نفسها . قلت بفرح :

هذا أقل ما يمكن أن يرد به على مثل هذه الأقوال ...

تمتم جاسم :

— لعل عام ١٩٥٨ يكون بداية لأعمال لا تنظر إليها الصهيونية العالمية على أنها طفيلية هامشية ...

٭ ٭ ٭

الفصل الثانى عشر

بلا وداع

أصابع الجلجنايت تملأ السلة المغطاة ببعض الزهور التى يأتينى بها كل يوم « باسل » الذى يعمل فى محل بيعها متنكراً تحت اسم باسيلى ...

أحسست بها ثقيلة فى يدى كأنها تحمل كرة الدنيا كلها فى هـذه الاصابع ...

كان اليوم هو موعد حضور رجل المخابرات الأسبوعى ... لينعم بساعات مع جانيت وسارة وكان علىّ أن أضع الأصابع فى عربته قبل أن يهبط بدقائق ...

والمشكلة تتفاقم لحين هممت أن أخرج إلى العربة كان هناك سائقه الذى لا يبارح العربة وقد لاحظت كذلك أن هناك رجلا آخر لا يبارح المـكان ...

كانت السماء تمطر سأما ...

تمطر منذ الصباح ... وعلى وتيرة واحدة ... كأنها تستبق الأحداث وتبكى على حيرتى هذه قبل أن يحين موعدها وأنا آه يا أنا ماذا تفعلين ريم ؟ وكيف لى أن أخرج السائق من العربة وأبعد ذلك الرجل من أمام الباب ؟ .

تمطر ... تمطر على وتيرة واحدة ..

تمطر بإصرار يائس ينوى الانتحار ...

ترعد ... ترعد بوحشية ... شىء ما يقبع فوق عنق ... يغيظنى ويستهلكنى من التفكير فى كيفية التخلص من كليهما ودقات وقع أقدام الرجل فى ذهابه وجيئه تنقلنى بسرعة عجيبة إلى حياتنا فى أطراف القدس وتلك الأقدام التى كنا نسمعها كل ليلة قبل أن يقتحموا علينا الدار ... استدرت للخلف والسلة فى يدى أحاول أن أبيع زهورى وأحلم بتلك الأمنية اللانهائية فى أن يترك الرجل مكانه من أمام الفندق ... وينام السائق.

رجعت لأسرق نظرة واحدة إلى العربة وأخرى إلى رجل الباب وشعرت أن السماء تمطر خيراً ... تمطر مخرجا لى ...

فلقد كانت هناك عربة جيب بها بعض العساكر استطعت أن أميزهم من ملابسهم نزلوا مسرعين يعملون سويا فى تغيير إحدى العجلات ...

وبينما السماء ما زالت تمطر خيراً كنت أخطو أولى خطواتى لأضع الجلجنايت فى العربة ... ولقد شغل سائقها مع الباقين فى تصليح العجلات أما الرجل المزروع أمام البيت فقد اقتلع نفسه ووقف قبالتهم يصدر نصائحه عن كيفية معالجة العربة ...

والعربة تزمجر ...

تطقطق ..

تدخن ... كل هذا فى آن واحد ...

وفى أثناء رجوعى لاهثة إلى الفندق وأنا أضع قدمى على عتبته كان رجل المخابرات ببطنه العريض يصطدم بى .

أفسحت له الطريق وأنا أتصنع الاحترام وأردد كلمات الاعتذار

الكثيرة .. إلى أن ركب عربته ، وقبل أن يصل إلى نهاية الشارع كان هناك دوى انفجار كبير ...

دوى سمعه كل من فى تل أبيب ..

عم الهرج والمرج الفندق من أثر هذا الصوت وهرولت مدام كاسيل إلى يوسف تستفسره الأمر مذعورة جداً . كان جالسا أمام خزينة البار يعد نقوده التى لاتنتهى ويتمتم بعبارات غير مفهومة ...

كان على بعد ذلك أن أتجه إلى الشرق من تل أبيب لأنقل بدورى إلى مكان آخر لأنه كان من غير المعقول أن أتواجد بعد هذا الحادث فى ألبرلا من جديد .

وبينما كانت العربة تمسك من الطريق قطعة وراء قطعة وترميها خلفها دون أن يلحظ أحد بيننا كانت تطوى الطريق بسرعة مذهلة إلى بلدة الرملة حيث المقر الرئيسى للمنظمة إذ توقف سائقها فجأة وانضم إلينا خمسة آخرون كانوا ينتظروننا فى عربة . عرفت على الفور فيها تلك العربة التى وقفت لتجذب انتباه الرجلين فى تلك الليلة بينما أنا أدس المتفجرات وقالوا لى:

— كان من غير المعقول أن نتركك تعملين وحدك . فنحن نخطط ونحسب حساب كل شىء قبل أن نشرع فى تنفيذه ...

فى أثناء الطريق كان أكثر ما عز على تركه فى تل أبيب هو المستر جون سميث الذى يعمل رئيساً لغوث اللاجئين ، فلقد عرفت فى الليلة الماضية بمجيئه من مدام كاسيل ولكن توالى الأحداث منعنى من رؤيته رغم سؤاله عنى .

فذهبت دون وداع .

الفصل الثالث عشر

أبشع عمل

تـكرم سيدى ،، أهلا وسهلا .. الحمد لله .. الحياة محبة .

كلمات .. كلمات قومى لغتنا لـكم أوحشتنى هذه التعبيرات .. كلمات لها سقطة فى نفسى حتى الأعماق .

كلماتنا العربية الطيبة بمعانيها التى خلقت قيمنا الروحية على مر الزمن لغتنا فى أذنى لها وقع دقات الخلود فى نفسى .

كلى آذان أسمع وأسمع أجمل الألحان من أفواه الصبية .. من أفواه الطبيعة البكر .

فهنا أسمع لحفيف الأشجار صوت الدعاء .. أسمع للرياح صوت الرجاء .. أنا أسمع هنا بطريقة طاهرة .

فلا ضحكة مجنونة ولا آهة معربدة .

عن يمينى صوت المؤذن يدعو للخير .

وعن يسارى صوت الناقوس يدعو للفضيلة .

وتختلط الأصوات بعضها ببعض الخير والفضيلة الرجاء والدعاء فأرى بشاعة ما فعلوا بنا .. حين هدموا الـكنائس وأحرقوا المدائن .

إحساس غريب يفيض من كل مسام جسدى الساكن . إحساس بالصدق فبلدتنا لا طعم لها إلا الصدق ... حتى أنا هنا أحس نفسى

صادقة.. هنا أستطيع أن أقول إنى ريم ابنة أبى من ظلمتموه وجعلتموه يهيم على وجهه فى بهيم الحياة .

أنا ريم ابنة أمى ... تلك المرأة التى أخرستموها يوما .

وقلت أحدث نفسى :

ـــ آه يا أمى لعلك اليوم وبعد أن عرفت أننى أصبحت فدائية .. لعلك تصبحين أسعد حالا .

وهنا تذكرت يوم قدمت أحد أخوتى قربانا على مذبح التضحية لقاء الإبقاء على حياة واحد مثلى .. كان ينوى أن ينجز عملا ما .

أسمع أصواتهم ينادون على . وأشعر بلذة كبرى . لقد بت شيئاً هاما فى حياة المنظمة حتى لقد اقترح أحدهم أن يخرجنى فى إحـــدى العمليات ، فأنـكر الباقون عليه هذا العرض وقالوا .

ـــ نحن لا نريد أن نخسر عقلا مخططاً ، أبحث لك عن أخريات أو آخرين للتنفيذ .

ومن يومها أصبح مجالى هو التخطيط على كافة مستوياته حتى خارج وطننا .. كانت تأتينى رسائل الشفرة من فروع المنظمات فى باريس أو لندن أو..وأقوم بالرد عليها وإعطاء المقترحات . لقد كنت أقوم مبكرة جداً أجهز تلك الصناديق التى كنا نخفيها فى الدار وأنظف بعض البنادق وبعدها أقوم على طباعة بعض المنشورات التى كنا نقوم بتوزيعها على أهالى الرملة ليتطوعوا معنا أو لنجمع بعض النقود لشراء السلاح . . أو . . ثم أقوم بقراءة الرسائل مع زملائى لنرتب خطة الغد وكل غد .

ومن بعض الأعمال التى تعلمتها التمريض . . فى بعض الأحيان

كان الفدائى يعود حيا ولكنه يعانى نزفاً غائراً . فكانت زميلتى شادية تقوم على تخديره ببعض العقاقير ثم تستل الرصاص من جسمه فيروح بعدها فى غيبوبة طويلة .

التمريض فى أوله يحملك تتردد أكثر من مرة .

وبعد المرة الأولى تزول رهبته . . كما تزول رهبة كل شىء حتى لو كان الموت نفسه . فنحن لانخاف شيئاً فلا شىء مهما بلغت قوته يمكن أن يقهر عزيمة إنسان يطوى أضلاعه على إرادة الحياة ، أعدادنا فى تزايد مستمر حتى خيل إلى أن البلدة كلها فدائيون ومنظمات كثيرة أنشأت قائمة بذاتها يحركها قادة آخرون .

من كل الجهات والبلاد يجمعون السلاح .. يشترون السلاح . . يهربون السلاح .

أسماء كثيرة أسمعها لأول مرة عن هذا النشاط منظمة الثأر منظمة الصاعقة .. منظمة . . منظمة . . و . .

نحاول جاهدين أن نعمل كلنا فى نظام جماعى فيه توحيد لهذا العدد الهائل .

نعمل فى إخلاص وبلا ضجيج .

كان « جاسم » أكثر من يجيد إجادة تامة القراءة والكتابة بالعبرية فكنا نقضى أمسيات كثيرة سوياً يقرأ فيها كل ماتكتبه جريدة هآرتس اليومية أو مجلة هاتسوفية الأسبوعية كل ماتكتبه جريدة الدافار الناطقة بلسان حزب الماباى الذى يراسه بن جوريون هذا الرجل المعروف

بأنه لا يحس شيئا إلا المكره لقومى ...
وقرأ على خبراً ...

خـــبراً جعل شيئاً ما فى يتحفز ... لحظة انتباه تسطع فى رأسى الصغير ... لحظة تتحكم فى كل ذرة من كيانى .

قرأ على أنه قد صرح لاندمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بأن على وزير الدفاع أن يبحث فى زيادة ميزانية الدفاع الداخلى والتصدى لأعمال الفدائيين التى هى آخذة فى الازدياد وخبر آخر يقول :

مثل هؤلاء الفدائيين يجب ردعهم دفعة واحدة حتى ننتهى من تلك الذبابة الكبيرة التى لا تستطيع أن تعمل شيئاً إلا الطنين الذى يزعج رقدتنا الآمنة ... ثم الحديث عن استيراد الطائرات من كل العواصم الأوروبية ... طائرات الميستير والميراج وقطع الغيار اللازمة .

صفقات غير مشروطة يدلون بتفاصيلها كل يوم وكل ساعة .

مع خيوط الفجر التالى ... مع أول خيط له كنت واقفـــة على عادتى أجهز وأعد كل ما يمكننى عمله ... وفجأة سقطت من يدى إحدى الطبنجات التى كنت أنظفها .

وضيق ملأ نفسى ...
ونباح ملأ أذنى ...

الكلاب تنبح باستمرار وبدون توقف .. خرجت خلف النباح .. وخرجت خلفى شادية فلقد كانت ساهرة مع أحد الجرحى ...
قالت لى هامسة :

ـــ ريم أحس برائحة الأنين !!

فقلت :

ـــ وهل للأنين رائحة ؟ !!

قالت على الفور :

ـــ الفدائى الحق لا يئن خاصة وهو قريب من مقر منظمته خشية عيونهم .. فأنا لا أسمع له صوتاً ولكنى أشم رائحته .

رائحة الأنين يا ريم ! !

وتبعتها خجلة ... خجلة من نفسى ...

حساسيتها عملاقة ... وأنا مازلت أحبو ... ظللت أتبعها صامتة فى رهبة من إنسانيتها الكاملة .

حتى الكلاب كفت عن النباح وتبعتنا بهدوء ..

رباه كان متكوما هناك يحرك شفتيه ...

يئن بلا صوت ! !..

كل ما فيه يئن ويئن بلا آهة مسموعة !!

لم نكن بعيدتين عن المقر بالشىء الكثير ... فتعاونا سويا على حمله وهناك على تلك الطاولة التى تعمل عليها شادية أرقدناه ... ولم يكن بحاجة إلى شراب يخدره .

وقامت باستخراج رصاصاته الثلاث ...

هكذا عدونا لا يكتفى بواحدة ...

دائماً ثلاث ... ثلاث ... ثلاث ...

ثلاث طلقات فى جسد أخى الذى أراد يوما أن يتبعنى خلف الأسلاك الشائكة . فكلما رقد أمامى أحدهم متدثراً بدمه الأحمر ... تذكرت آخر منكفئاً فوق الأسلاك وثلاث فتحات فى ظهره الطاهرة ..

وقبل أن أستدير لأخرج بعد أن انتهى كل شىء . . . رأيته يفتح عينيه ويقول شكراً لك يا ريم .. كان «خالد» صديق وصديق ياسر فى الدرب ... خالد من رحـــل مع ياسر ليلة العيد ليتما تعليمهما فى القاهرة ...

خالد زميل طفولتى ... ممدد كجثة بلا وجه ...

خالد من كان يحلو له أن يرى معنا يافا من فوق قمة عالية .

ولكنه راح فى غيبوبة استمرت ثلاثة أيام ..

لم أبارح جواره إلا لحضور أحد اجتماعاتنا الدورية والمهم منها فقط . فلقد هاجت الذكرى فى أعماقى الجريحة .. ذكرى أيامى الخوالى ذكرى بيارتنا وشجرة الليمون وبطن أمى الحانية وزرقة عين والدى ..

حتى ضفادعى الحمراء .. اشتقت إليها وإلى كل من كانوا يأخذونها منى .. آه يا لوحشة الأهل والدار .. والأرض . . والسماء . . التراب فتراب بلدى أسمر له ابتسامة ودود .. ابتسامة كانت دوماً تغرينى على السير فيها حافية القدمين أستشعر لذة سخونتها . . آه يا خالد .. لحظة رؤيتك على هذه الطاولة اشتهيت لك الموت ؟ .

أول جريح تمنيت أن أستطيع قتله بيدى . بهذه اليد التى تشابكت فى يدك صغيرة .. أصابعى التى تعلقت بكتفيك لتساعدنى على أن أصعد التل والجبل .

وهأنذا اليوم أود أن أقتلك لأريحك أنت وتبقى صورتك فى ذاكرتى تضنينى حتى وأنا فى آخر لحظاتى بالحياة . ثم أفقت من رقدتك لتقص علينا أبشع قصة عرفتها البشرية .

حين قاموا على بتر ذلك الجزء من جسمك بقصد إعقامك ثم جعلوك بعد ذلك حقلا لتجاربهم المتخبطة .

ثلاثة أشهر وأنت سجين مستشفاهم فى القدس وبعد هروبك قرب الحدود كان سيل من الرصاص ينهال عليك حتى حسبت السماء استبدلت بمائها رصاصاً .

أسلوب وحشى للقضاء على شعب .. حتى لا نتناسل بل ننقرض تدريجياً .

هكذا استباح لنفسه شعب الله المختار أن يفعل بنا يمسخ رجالنا ويفضل الحبالى منا ليحصدوهن أولا فكأنهم يقتلون اثنين بدلا من واحد .

عملية رابحة .. صفقة ناجحة بالنسبة للاسرائيليين .

عفواً ياشعب الله المختار فالله لايرضى ولن يرضى أن تلهوا بأرواح الموجودين منا وأرواح الذين لم يروا النور بعد .

برىء خالد من جراحه . وأفاق ليسأل بلهفة عن رفاقه فى الجهاد ،

سألنى عن ياسر . . عن والدتى عمن تبقى من إخوتى عن ...
وعن . . وعن . .

وفى ليلة كان لنا فيها حديث طويل .. سألنى عن ياسر وأملى القديم فى الزواج والأطفال .. و .. تحدثنا كثيراً وتجادلنا كالم نتجادل من قبل حتى فى أيام طفولتنا .. وفجأة قطع على الحديث حين قال :

— أنا عاتب على ياسر لأنه لم يتزوجك . ولم يتزوجك بالفعل . فأنا لا أحب أن ننسى أحد أسلحتنا التى يحارون فيها معنا ،

ثم هتف قائلا :

— يجب ألا ننقرض ريم لا تنسى هذا السلاح .. إنه أقوى حقيقة .. أقوى من تلك القنبلة التى تخفيها تحت طيات ثيابك .

الفصل الرابع عشر

نواة الجيش

حمداً لله فهذه رسالة من ياسر يهنئنى فيها على وصولى سالمة إلى الرملة ... فلم أكن أدرى أن ياسر كان على علم برسائل الشفرة التى كنا نكتبها أو نتلقاها ..

رسالة من ياسر فيها نداء لى منه ..

وأنا لم أتعود أن أرفض له نداء ...

فكان علىّ أن أسافر إلى لندن لأعمل لصالح فرع منظمتنا هناك ، وجاسم استخرج لى جواز سفر وجهز كل الترتيبات اللازمة .. آه يا إلهى لكم أكره لحظة الوداع .. لكنها ضرورية بالنسبة للفدائى فربما يكون هذا وداعه الأخير معهم .

كان على أن أستقل الطائرة من مطار عمان ، ولما كانت والدتى وأخواى يسكنون أحد أحياء الأردن بمعرفة وعن طريق منظمتنا وكان الزميل ! حسين ! زميل الكفاح الواحد وملك الأردن لا يرفض لنا لاجئاً أبداً ، بل يقوم بنفسه بالإشراف على حياتهم وراحتهم ..

فكان لابد لى من رؤيتها قبل الرحيل ..

كانت فرحتى لا يمكن وصفها .. وأنا أتصور نفسى بين ذراعى

أمى مرة أخرى .. أتحسسها كما كنت أفعل صغيرة . وأدع يدها تمر بخفة على رأسى المتعب ..

ثوان ولكنها ستمسح تعب سنوات بأجمعها .. وكم ستفرح بى ، وربما تكلمنى هذه المرة .. تدعو لى ولها .. وسأقص عليها كل شىء ، كل ما حدث .. وأخواى أجزم أنهما لن يعرفانى قبل أن أقدم لهما نفسى .

كانت العربة تمشى متثاقلة كامرأة ترفض أن تبتعد عن قبر ابنها وهى تقلنى «وجاسم» إلى المطار ، فلم يوافقونى فى أن أزور أمى قبل الرحيل خوفا من جواسيس إسرائيل فى كل مكان ، ويكون من جراء هذه الزيارة أن تلاقى أمى من صنوف العذاب الشىء الكثير ..

إحساس لا يمكن وصفه ، أن يكون فى مكان ما إنسان عزيز عليك على بعد خطوات وأنت غير قادر أن تمد له يدك اللهفى لهذا اللقاء ..

وفى طريقنا إلى المطار كنت أرى فى كل النساء وجه أمى . أسمع صوتها فى أذنى فأتلفت كالمسعورة يميناً وشمالا ، فلا أعثر لها على أثر .

كانت دموعى تفيض بغزارة إلى الداخل . . داخلى الذى يهوى فى جنون من النوع الهادىء .. لأن الواقع الذى بت أحيا فيه له يد بأظافر معقوفة ...

تجرح صدرى وتمزقه ...

واقع مصدره أننا بلا مدينة ...

تنبهت على « جاسم » ينتفض بجوارى ، ثم أمر السائق أن يدخل من شارع الملك حسين ليدور على أعقابه عائداً لأزور والدتى ...

وهنا استيقظ فى نفسى الواجب الذى خمد لدقائق بسبب حرمانى من رؤية والدتى ...

استيقظ الواجب فى صدر ريم الفدائية فقلت على الفور :

— إلى المطار أيها السائق ...

وبينما أهم بالصعود على سلم الطائرة لمحت بقايا دمعـــة فى عين جاسم ، وهو يشير إلى مودعاً ، شكرته بصدق ... بكل ما فى قلبى من صدق ونزف ...

وفى مطار لندن الـكبير كان ياسر بقامته المديدة وملامحه الشرقية القوية كان ينتظرنى وقد تصلبت عيناه على سلم الطائرة ...

كيف حالك ياريم ؟

على أحسن ما أكون يا بن عمى ...

كانت هاتان العبارتان آخر ما قلنـــاه بالعربية ... ثم قال بالإنجليزية :

— أتبعينى من فضلك ...

وجلسنا يومنا نمشى فى شوارع غربتنا ... يعرفنى وجه المدينة الصناعى ووجهها الحقيقى ...

آه يا بلدتى الصادقة فإن لك وجهاً واحداً .

وجه الحقيقة ...

ركبنا القطار الذى يقطع البلدة من أولها إلى آخرها ، وأخذ ياسر

يشرح لى ويحفظنى أسمـاء المحطات الكثيرة جداً وبعض الأماكن الخاصة بعملنا .

وفى آخر النهار أوصلنى إلى أحد الفنادق التى تقع ظهر مسرح البيتلز الشهير .

وهناك وجـدت حقيبة فى حجرتى ... حقيبة مملوءة بالثياب وزجاجات العطر ... وكل ما يمكن أن أحتاج إليه فى هذه البلدة الصاخبة .

كان على أن أحيا بطريقة طبيعية حتى لا أثير شكوك أحد ... وكذلك كان على أن أجد عملا حتى لا أكلف المنظمة نظير إقامتى اليومية وحتى ولو كلفنى الزميل حسين ملك الأردن كعادته مع كل المنظمات حين كان يأمرنا المرة تلو المرة بألا نضع فى حسابنا أى اعتبار للنواحى المادية اعتماداً عليه .

الناس هنا تتحدث بسرعة ، وتتحرك بسرعة ... وتأكل كل شىء بسرعة كأنهم شريط سينمائى يعرض على شاشة أمامى بسرعة مفتعلة ... وصديقتى مارى تعمل معى فى ذلك المطعم تحمل هى الأخرى الأطباق فى سرعة قصوى وتعلمنى حملها ... وفى آخر النهار تهرول مسرعة فى آخر الشارع لتلقاه ... وتبدأ فى تقبيله فى عرض الطريق بنفس السرعة التى تعمل بها ، وأول الأمر كنت لا أستطيع أن أفرق بينهما ...

رباه ما زال الرجل فى بلادى منبعاً للرجولة يثير رغبتنا فى طاعته ...

وحين قلت لمارى هذا الكلام يوما ... ضحكت كثيراً وهى

تقول أنتن معشر الشرقيات الواهمات ... أما ترين تلك السرعة التى نحيا فى دوامتها ... فنحن لاوقت لدينا للحب على طريقتك ... طريقتنا وأسلوبنا يجعل من الرجل شيئاً يقدر ، أما هنا فلا ثمن له ... اللهم إلا دعوة عشاء أو ربطة عنق جديدة لتشده منها مارى ثم تلتهم شفتيه وحين قالت لى يوما وهى متحدية :

— بطريقتك هذه ستموتين دون أن تعرفى الحب ! !

لم أشأ أن أقول لها أنسكن شنقتن كل ومضة أمل فى حب لى ... حب على طريقتنا الشرقية ... فأنا هنا يا مارى لا أستطيع أن أفصل بين الحب والجنس لا أستطيع أن أعطى كل عابر جنساً مفصولا عن مشاعرى الشرقية .

تستحيل نظراتها إلى سخرية مريرة منى وتقول لى :

— لا طاقة لى على ما تقولين ...

نحن هنا كل طاقتنا فى البحث عن لقمة العيش اليومى أو الموت على أرائك حدائق الهايد بارك.

« طلال » زميل لنا يدرس الطب فى لندن ... يدرس فن إزالة الآلام وخلق آلام جديدة ... يدرس بالليل ويتكلم بالنهار فى ركن المتكلمين من حديقة لندن المعروفة ، يتكلم عن العدالة والحرية والمساواة ... عن الوطن السليب عن ...

وأقف خلفه أنظر لذلك الجمع من الإنجليز الملتف حوله . كانوا ينظرون إليه بشىء يشبه البله ورويداً رويداً ينفضون من حوله مبتعدين ينظرون إلى الخلف بين الحين والحين كأن المتكلم مصاب بمس من الجنون !!

وأبقى أنا وهو وبعض الأفريقيين الذين حال لون جلودهم دون اعتبارهم أناساً فى هذه البلدة العتيقة ...

صرخات طلال من هذا الركن من الحديقة لا معنى لها ... فنحن نتكلم فى قضية لا يحس لها أبعاداً هذا الشعب ... ويتآمر عليها أطراف العالم كله ليسكتوا وقعها ليمسخوا وجهها فمكاتب الدعاية الإسرائيلية لا تنام ولا تكف عن اتهامنا بكل ما فعلوه هم بنا ...

فالكلمات هنا أننا متعصبون حاقدون لا نريد حيـــاة آمنة لهم يا لطيبتهم العذبة !
أليسوا شعب الله المختار ؟...

والحق بهرتنى طريقتهم فى تلك الدعايات لأنفسهم فى أسلوب جمع التبرعات ... وفى احتكارهم لكافة الوسائل التى لها حق بحث مشكلتنا فكل الجرائد والمجلات والشركات ودور عرض الأفلام القطاعات الخاصة والعامة ... يلعب الدولار فيها دوره الخالد ... حتى لا يفسح مجال لنا فى البحث عن حقوقنا الضائعة .

كنت مبهورة انبهار إنسان يدخل لأول مرة مشرحة كل الوجوه فيها وجه له هو .

الشوارع والمكاتب هنا تتلقانى فى تقزز ملحوظ فلا أنا إفريقية سوداء ... ولا أنا شقراء ليحددوا مكانى تحت الشمس .

أنا خمرية اللون ... شعرى ظلال تحوطنى من كل جانب رايات ترفرف لتعلن على الملأ أننى من بلاد اغتصبوها يوما ما .

يبدو أنى أذكرهم بجريمتهم ... فيلوون أعناقهم بعيداً عنى .

برغم أن مارى تعالج أبسط نقص فيها لتبدو أكثر جمالا مما هى عليه ... إلا أننى أشم لها رائحة عفنة أرى فى عينها آثار جريمة لم يقبض على فاعلها ... أراها ممسوخة برغم الشعر الصناعى الفاحم الذى تضعه على رأسها ... برغم الأهداب الصناعية الفاحمة التى تلصقها بعينها تحاول أن تتسول شبهاً شرقياً برغم ثورتها علينا .

فى أحد المطاعم كنت أتناول وجبة الإفطار مع ياسر وقد هالنى تلك الجدية الغامضة التى قابلنى بها ... شىء ما أوقفنى عن تناول الطعام حين رأيت طلال وعدنان وأحمد ومحمد يأتون الواحد تلو الآخر ... ويجلسون على مائدة بعيدة عنا .

هناك شىء جديد .

شىء رهيب يطفو ويطفح من الوجوه .

وفى مقرنا فى قلب لندن ... كنا مجتمعين فى مكان رابطة الطلاب العرب هناك ... نقرأ فى تلك المستندات التى نحصل عليها بطريقتنا الخاصة . نقرأ أن الدول الثلاث الكبار قررت إعطاء إسرائيل السلاح دون أى شروط وبأى كمية وفى أى وقت تشاء . وأكثر من هذا أن هذه الدول الكبار تدعم نشاط إسرائيل الاقتصادى وتعمل على زيادته عن طريق إعطائها الفرصة للسيطرة على بعض أسواق أفريقيا مثل تنزانيا والسنغال ... و ... وقد وافقت الصهيونية الأمريكية لإسرائيل على إقامة كثير من المصانع أو مراكز التجميع ويكون التعاقد مع

تل أبيب ومع حكومتها وبذلك وفى مدى عشر سنوات ستتمكن إسرائيل من توريد أغلب احتياج أسواق الشرق الأوسط ، وكذلك السيطرة عليها اقتصادياً .

حيارى أمام هذا العدد من الدول التى تمد يد المساعدة لإسرائيل ننظم تكتلات الطلاب وننظم مسيرة صامتة ... نلق بالمنشورات التى تشرح قضيتنا فى المسارح والحدائق العامة والمطاعم .

والشفرة تأتينى كل يوم بمزيد من المساعدات لإسرائيل ، كلنا نعمل هنا بقوة وإصرار فى كل ما يمكننا من مجالات .

وصديقتى مارى بعيونها الجامدة وبشرتها التى تشوبها الزرقة الجائرة . صديقتى مارى أو هكذا تسمى نفسها صديقتى مارى تبكى بشدة وحمدت الله أنها تعرف هذا الانفعال الذى يسقط الدموع من عينيها المحرومتين من الأهداب ... وحين سألتها عن سبب هذا البكاء ...

قالت ما جعلنى أحس كيف يمكن أن يصعقنى تيار كهربى ... وقدرة هذا التيار عالية جداً تمس جحيم السماء ... ولكنى لا أموت ، لا أموت مجرد عذاب ... وأى عذاب ...

الأرض التى أقف عليها نعش ترقص فوقه شقراء عارية بلا شعر فاحم مستعار تقول لى :

ـــ أنا أبكى لأن حبيبى الطيار قرر الانضمام إلى سلاح الطيران الإسرائيلى رغبة منه فى زيادة دخله وأنا خائفة عليه من العرب القساة العرب المغتصبين و ...

قلبي يقفز من مكانه وأضع يدى عليه وأحكم قبضتى فوقه حتى لا ينفلت من بين أضلعى المصعوقة والهواء أصبح ثقيلا جـــداً ... وجسمى ضعيف جداً وقد أصبحت حساسة إلى درجة رهيبة ... آه يا إلهى ما أصعب التنفس هنا فى بلدة تعرف أنه على بعد خطوات منك يوجد مركز للتعاقد مع الطيارين للدفاع عن إسرائيل ... إسرائيل المغتصبة ديارنا وأولادنا وأرواحنا .

وفى المساء كنا نجلس جميعاً نساءنا ورجالنا ... كل من يعمل هنا فى هذا الفرع ... نتكلم ونتناقش كأننا ندور فى حلقة مفرغة ...

فلا أمل فى دورة هيئة الأمم ... !

ولا رجاء فى أن تغير إحدى الدول الكبرى سياستها تجاه إسرائيل ... والسلاح لدينا لا يكفى أن ندخل معهم فى معركة وجهاً لوجه ...

ثم نعود لنتكلم ونتكلم من جديد لنجد أنفسنا ندور فى حلقة مفرغة — حلقة مظلمة وإن كان لنا فيها بصيص من نور أو أمل فهو آت من البلد الأم مصر ...

مصر تصرخ معنا فى كل صعيد وفى كل مجال ...

تنادى بنا ولنا ...

تفتح لنا ساعديها الكريمين ... لأن بها ... لأن فيها إنساناً ما ، له سمرة الصدق العربى وحرارة القلب الطاهر يضع كل إمكانياته فى خدمة قضيتنا بإخلاص ليصنع المعجزات وأى معجزة أكثر من أن

يخلق لنا فى بلاده وتحت سماء أرضه نواة جيش لنا ...

والله جيش ... لنا نحن المطرودون فى العراء من لا نملك أسمالا نستر بها عوراتنا ... لنا جيش ...!!

كل شىء يحدق فى مؤنباً ... حتى نظرات ياسر لى ... وهل هناك شعور بتأنيب الضمير تحس به الضحية لكونها ضحية ... !؟

وينتصب أمامى عملاقا يمس القمر سؤال كبير .

— ما ذا كان فى وسعى أن أعمله لأتلافى إنشاء هذا المكتب وما سيحدث من جرائه .

وأسمع جوابين لسؤالى ، الأول يقول لا شىء كان يمكن أن تعمليه والآخر يقول لى كان هناك كل شىء يمكن عمله :

ويختلط الجوابان فى عقلى المصعوق اللاشىء والشىء الكثير وأخرج بقرار أكيد :

يجب أن أمنع هؤلاء الطيارين من الوصول إلى تل أبيب بأى ثمن ... فكما فهمت من مارى أن حبيبها وأكثر من عشرين طياراً آخرين سيسافرون على طائرات الشركة الفرنسية التى ستبدأ رحلتها بعد ثلاثة أيام فى تمام الساعة العاشرة صباحا ...

وياسر مشغول بالعودة لبلادنا محاولا بذلك أن يجمع شمل تلك المنظمات الكثيرة التى تعمل هناك ... وتوحد جهودها فى ظل منظمة واحدة ... وكذلك كان عليه أن يعمل على زيادة الجيش ...و...و...

ياسر والأمل فى أن يكون لصوتنا صدى معترف به فى الأوساط

العالمية أن يكون لنا مكان فى الضمير العالمى ...

نقضى أمسيات كثيرة نبحث فيها مستقبل مشكلتنا وفى النهاية نصل إلى نفس قراراتنا السابقة بأنه لا أمل فى هيئة الأمم ... ؟! ولا رجاء فى أن تغير إحدى الدول الكبرى سياستها . ولا سلاح لدينا نحارب به وجهاً لوجه .

وخرجنا بحقيقة هامة ... لقد اكتشفنا سلاحا رائعاً سلاح اتحاد كل الدول العربية وإصرارها على عودة ديارنا لنا ... والوقت فى صالحنا ... والزمن معنا وكل دولة عربية لا تتوانى فى تقديم كل ما لديها لنا لأنها تؤمن بوحدة المصير والخطر الصهيونى .

فحقل العمل الرئيسى يجب أن يكون على كل أرض عربية ، وهنا عادت الطمأنينة تسرى فى أطرافى المتصلبة برغم كل ما قالته مارى ...

الفصل الخامس عشر

أكثر من لقاء

يحلو لى كثيراً أن أحملق فى كل وجه أعرفه . أحفظ تقاسيمه ... كأنى لم أره من قبل بمثل هذا الشبه ... أبحث عن الوجوه السمر فى زحام الطريق . وأتسكوم تحت ظل ياسر وأنا سائرة بجواره ومعه فى ميدان البكاديلى فى قلب لندن . أقف فجأة كطفلة صغيرة وقعت منها قطعة حلوى على الرصيف ... قطعة واحدة فقط .

فينظر إلى ياسر ويحدق كلانا فى الآخر أحفظ وأحفظ ملامح ذلك الشبه الجديد المطل من عينيه .

فى عينيه مرآتان .

أرى فى إحداهما حاضر شعب .

وفى الأخرى مستقبل وطن هذا الشعب .

ويأتينا طلال فى أحد المحال بتذكرتين للطائرة إحداهما لياسر والأخرى لمرافقه .

المرآة فى عين ياسر تكبر وتتجسد بالنور .

مرآة مستقبل وطننا فلسطين وأرى كل عربى أسمر تحترم له كلمة فى هيئة الأمم ... لن يتركوه يعوى ككلب ضال بعد اليوم ... وأرى كذلك العالم بأجمعه يحسب ألف حساب لعروبتنا النادرة ... أرى فى المرآة أسطورة شعب الله المختار وقد تكسرت وذرتها رياح صحرائنا المترقبة .

هكذا قرر ياسر أن يعود إلى وطننا ليلملم شمل تلك المنظمات الكثيرة المتناثرة فى عرض البلاد ينظمها ويوحد جهودها ... يزور البلدان العربية ... ويقوى الجيش .. يريد أن يخلق له مكاناً تحت الشمس .

أكد وأكد أكثر من مرات ومرات ضرورة إمداده بكافة المعلومات التى يتيسر الحصول عليها عن الطيارين المأجورين أعدادهم وتوقيتات رحيلهم بالضبط لأن هذا سيحدد له كافه أعماله مستقبلا وخاصة حين يطلع القادة العرب على تلك الاحتمالات السيئة المنتظرة لبلادنا وللمهجرين من أهالينا ... وترك لى القيام بكافة أعماله هنا فى لندن .

أذكر تماماً وهو جالس أمامى فى ذلك المكان والموسيقى تعزف نغماً يمس شغاف القلب الذى كتب عليه أن يعيش فى صحراء المخيمات إلى صحراء العمل المضنى .

كنت أنظر إلى عينيه الطيبتين وأقاوم رغبتى الملحة أن أستبقيه ... فأنا دائماً أحس التشرد دونه ولكنه كان بعيداً بعيداً ربما فى قلب خطة جديدة يدرسها أو سلاح جديد يتفقده أو ... أو ...

ثم نظر إلى فجأة وقال :

— أرجو لك التوفيق ريم فى رئاسة المنظمة بعد سفرى .

— شكراً ... شكراً ياسرى .

نظر إلى بنوع من الاهتمام ثم أكمل كلامه قائلا :

— أتذكرين شجرة الليمون التى كنت تصرين على غرسها لتطرح ثماراً أكثر من ثمار أشجارى .

قلت بلذة : وكنت أعتنى بها أرويها بيـــدى ... أجلس بجوارها أرجوها أن تكبر بسرعة و ...

ولـكنه قطع كلامى حين قال :

ــ أنت غرس يدى يا ريم فلاتخذلينا . كونى يقظة وثقى من كفاءة المجموعة وتصرفى فى كل مشكلة بثقة وهدوء ... لا تنسى أن طلال بجوارك ليقوم بدوره على أحسن وجه .

ثم قال بنوع من الجدية ..

ــ سأعد الأيام لألقاك فى وطننا .. كونى حريصة ريم .

وأنا كعادتى معه دائماً أحاول أن أضحكه حين يبدو جاداً فقلت :

ــ هكذا أنت دائماً تنصحنى بفلسفة كعادتك ثم تقول لى :

ــ من المستحيل أن أطلب من فتاة فى عمرك أن تفهمنى .

قال :

ــ دا كان زمان . أنت الآن مخططة يا سيدتى الفاضلة .

ــ وأنت ماذا يا ياسر ..

ــ آه يا ريم أنا من لا يريد أن يموت قبل أن أعثر على وطنى ..

ــ الله معك ..

ــ الله معى والأمــــل فى الدول العربية التى تفتح لى ذراعيها مرحبة .

وحانت ساعة عودته إلى بلادنا وكنا على باب المطعم وقبـــل أن نفترق قلت له ..

— ليفتح الله لك كل الأبواب ..

أمسك أصابعى بقوة إلى حد الألم وقال مكلما نفسه :

— ليفتح الله ... ليفتح الله لك كل الأبواب دعاؤك جميل ياريم .

ثم أشار بيده كمن عثر على شىء فجأة وكان يبحث عنه زمناً وقال ..

— ليفتح ... ليفتح ما رأيك فى اسم فتح ... كل المنظمات تحت اسم فتح .. لك الفضل فى اختيارى لهذا الاسم .. شكراً شكراً لك .

عدنا نمشى فى شوارع غربتنا اللزجة إلى أن افترقنا عند منحنى أحد الطرق الموصلة إلى مكان إقامتى .. أنا أبغى الوصول إلى حجرتى وهو إلى المطار .

وما أن وطئت قدمى عتبة تلك الحجرة التى تؤوينى ليلا وتخبىء أفكارى فى عتمتها حتى تذكرت مدى اهتمام ياسر بالمعلومات الخاصة بالطيارين المأجورين وإلى أى حد كان هذا الموضوع يحتل كل جزء فى ثنايا عقله .. لقد كان أحد العوامل الأساسية التى جعلته يعجل فى العودة ليطلع القادة العرب على كل ما هو متوقع من جراء هذا العمل .

ما أن تذكرت حديث ياسر فى هذا الموضوع حتى عاد السؤال الحائر ينتصب أمام عينى مارداً جباراً يطن فى أذنى إلى حد الصراخ السؤال الكبير :

ـــ ماذا كان فى وسعى أن أعمله لإتلاف إنشاء مكتب التعاقد مع الطيارين لحساب إسرائيل وما سيحدث لنا من جرائه !!

وأسمع جوابين لسؤالى الأول يقول لا شىء كان يمكن عمله والآخر يقول لى كان هناك كل شىء يمكن عمله!! ويختلط الجوابان فى عقلى اللاشىء والشىء الكثير وأخرج بقرارى الوحيد .

يجب أن أمنع هؤلاء الطيارين من الوصول إلى تل أبيب بأى ثمن ، أكثر من عشرين طياراً إلى تل أبيب حتى يحصدونا سماء وأرضا. ضحكت وأنا أقول لمارى صبيحة اليوم التالى وقدها لى أن أجدها كأنها تحيا فوق فوهة بركان .

بركان لا يخمد إلا ليثور من جديد .. قلت لها ضاحكة :

ـــ أراك معذبة اليوم وتحدثين نفسك كثيراً !!

قالت ..

ـــ يا عزيزتى إنى أدعو لصديقى أن يعود سالما .

ثم قالت ..

أقلدكم يامعشر الشرقيين فأنتم تجيدون الدعاء لله .. للعذراء .. للأولياء .. لأى شىء . فضحكت وأنا أقول لها :

ـــ ربما يستجيب الله لك ولا يسافر مطلقاً عنك ياماري .. !

قالت بضيق :

دعينى من أحلامك الناعمة .. وعلى كل حال لو فرض وحدث

هذا فسأشعل شمعة للكنيسة التى لم أدخلها منذ سنوات ..

ثم تركتها تسبقنى إلى المطعم الذى نعمل فيه سوياً :

آخر عهدى بحمل الأطباق ..

يجب أن أمنع هؤلاء الطيارين بأى ثمن وخاصة بعد أن عرفت من سياق حديثها لى أنه وباقى الطيارين سيرحلون فى خلال هذا الأسبوع على إحدى الطائرات الفرنسية التى ستقف بباريس لينضم إليها طيارون آخرون ..

وقبل نهاية الأسبوع كان الكل يعارضنى .. يعارض خطتى بشدة. ولكنى كنت أكثر إصراراً منهم حتى أرغمونى أن أقول لهم بقسوة ...

— إننى هنا أول من يطاع لها أمر ، لقد قررت ولا أجد مبرراً للتراجع مطلقاً و .. و ..

لم يكن هناك بد من موافقتهم لى على ما أنوى القيام به فأنا دائماً حتى منذ طفولتى أصر .. وأعرف تماما ما الذى أصر عليه أنا أقدر دقة العملية وصعوبتها ... ولكن هدفى كل هدفى أن أمنع هؤلاء الطيارين من اللهو بأرواح شعبنا ، وحين قال لى طلال :

— ولكنك بخطتك هذه ستقضين على أرواح عشرات من الأبرياء على نفس الطائرة ... فقلت وشريط سريع يمر فى مخيلتى عن حياتنا الدامية فى فلسطين فعلى الفور قلت ...

— كعرب نكره الدم المسفوك طلال ... وما القتل عندنا إلا رد فعل لنمنع به موت اللحظة ...

الموت الذى ينتظرنا فى كل اتجاه ...

جلسنا ما يقرب من ساعتين ليلة العملية بعد الخطة الأخيرة ونحكم حركاتها بالدقيقة والثانية ؛ فلقد كان علينا أنا وطلال أن نركب نفس الطائرة إلى باريس ونضع قنبلة زمنية فيها ثم نغادرها فى مطار باريس حيث تتوقف لتأخذ مزيداً من الطيارين المأجورين لإسرائيل وزمن القنبلة ساعة تماما قبل أن تنفجر يضيع نصف هذا الوقت والطائرة فى باريس والنصف الآخر حين تتوسط الطائرة السماء ... وهناك ينتهى كل شىء فى هدوء ...

وعاد طلال يقول لى ...

كونى حـــذرة ريم وخاصة وأنت تخبئين القنبلة فى دورة مياه الطائرة ... تصرفى بسرعة حتى لا ... حتى لا ...

فقلت على الفور وقدر كبير من المرارة يزحف إلى قلبى .

ـــ حتى لا ... حتى ماذا يا طلال حتى لا يقبض على ... حتى لا ألقى فى غياهب السجون ... سجون لا أعرف لها أرضا بعد فربما فى تل أبيب مقبرة الفلسطينيين ... أو فى باريس أو فى سجن لندن الكبير أو ...

فقال ضاحكا ...

ـــ إذا كان لى الخيار فأنا أفضل لك سجن الباستيل حتى أتسلق أسواره العالية وأسرقك فوق حصان أبيض كما تقول قصص التاريخ ...

قلت ...

ـــ ولكننى أشفق عليك من التسلق والحصان فقضيتنا قضية شعب

بأكله .. قضية .

ألف ريم ...

وألف طلال ...

فأين لك بألف حصان ؟؟

— والله وحق عينيك لأخلقن لك ألف حصان وألف متسلق، ولا أتركك أبداً ...

فى صبيحة يوم الخطة تظاهرت بالنوم وحاولت مارى معى جاهدة أكثر من مرة أن توقظنى لنذهب سويا إلى المطعم ، ولم تكن تدرى أن اليوم آخر عهدى بحمل الأطباق ...

قالت .

قومى ... قومى كل دقيقة فى التأخير تخصم من أجرك .

فقلت :

— لا يهمنى ... فأنا اليوم متوعكة ...

تضايقت من إصرارى وقالت :

— هيا قومى من فراشك على الأقل حتى يكون لديك نقودك لأعمل لك جنازة على طريقتكم الشرقية ... جنازة فاخرة وأنوار وقهوة وشاى و ... و...

قلت وأنا أتلذذ بضيقها :

— أقوم فقط . إذا قلت لى أنك ذاهبة للمطار لوداع صديقك .

قالت على الفور :

ـــ لا يمكن أن أودعه إن ذلك الوقت سيخصم على بالأجر .

تركتنى وقد سمعت لوقع أقدامها على الدرج دقات وقع القنبلة الزمنية ...

بعد دقائق كنت أفتح الباب لطلال شد على يدى مشجعاً كعادته وهو يقدم لى تذكرتين للطائرة المعينة إحداهما لى والأخرى له .

وحانت ساعة الصفر فالتقطت حقيبتى وتعطرت ونزلنا سويا ، كان طلال لا يفتأ ينظر إلى كثيراً .

فقلت مازحة .

ـــ أيعجبك ثوبى إلى هذا الحد ؟ أم هى تسريحتى ؟

فقال :

ـــ مالك رقيقة إلى هذا الحد ؟ حنون مثل سماء يافا حتى أننى لا أصدق أنك تحملين فى حقيبة يدك قنبلة ...

تركته يتكلم ويتكلم وسبحت بعقلى فى تلك الرسالة التى بعثتها أمس مع أحد زملائى العائدين إلى وطننا ليسلمها لياسر والتى قلت له فيها :

ياسر ابن عمى :

بعد أن تصلك رسالتى هذه قد تكون هناك ضرورة للرد على وقد لا تكون هناك ضرورة مطلقاً فى أن تمسك القلم والورقة لتكتب لى بل ستكلمنى بقلبك الكبير تكلم روحى بعد أن أكون خلعت عنها ذلك الثوب المادى الذى يجثم عليها ويحبسها فى تلك البوتقة المسماة جسداً .

روحى التى ستفضل كثيراً الحياة فى قدسنا تزور المسجد الأقصى وتستكين فى كنيسة القيامة وتمس كفاحك الشريف .

ياسر ..

إذا كان لى ما أرغب فيه فى هذه الدنيا بعد عودة وطننا لنا فهو أن تطمئن المرأة التى تنتظرنى دوماً فى دارها ... تطمئن أمى وسط أخوى تطمئنها مهما عرفت أنت عنى .

ريم

* * *

وفى قلب مطار لندن الكبير كنت أقف بجوار طلال ببذلته الأنيقة ونظارته السوداء الكبيرة ... كنا آخر اثنين يهمان بالصعود إلى الطائرة حين لمحت وجه صديق مارى بين الركاب وجه غبى يباع ويشترى نظير بضعة دولارات ... يقتل ويقتل من أجل حفنة منها .

وقلت أحدث نفسى :

— لو كان معى طوق أحزم به رقبته ككلب فى يد حسناء باريسية لما اعترض نظير تلك الحفنة المعروفة التى سأدسها فى جيبه .

كل شىء مر فى لحظات وأنا أعى نفسى بجوار طلال نأخذ مقعدينا فى هدوء ... وقد تشاغل طلال بقراءة إحدى روايات شكسبير .

أما أنا فقد كنت أرتدى ثوباً بلون الشفق تماما وقد تركت شعرى مسدلا حول رأسى كأنه حاجز يحميها من كل شىء ...

وابتدأ الاضطراب يسرى فى عروقى وأنا أحرك رأسى فى جميع الاتجاهات ... أسمع نبضى دقة دقة ولا شىء أعمله إلا النظر فى ساعتى

بين كل ثانية وأخرى ...

نظر إلى طلال محذراً من عصبيتى الواضحة . فهربت من كل من حولى بتصنعى النوم وأغمضت جفونى بقوة ...

قبل وصولنا إلى باريس بدقائق كنت أتوجه إلى دورة مياه الطائرة تشيعنى ابتسامات المضيفات الشقراوات ... وبسرعة دخلت دورة المياه ودارت عينى دورتها المتسائلة أين أضع قنبلتى الزمنية ...

فى صندوق الأوراق المهملة ؟

لا ... لا خوفا من أن ينظفوه فى باريس .

على هذا الرف خلف هذه الزجاجات ؟ ؟

لا ... لا ... ربما يحتاج أحد المسافرين بعض قطرات من هذه الزجاجة أو تلك ليزيل بها آلام معدته .

وكان المكان الذى وقع عليه اختيارى هو تحت المناشف النظيفة الموضوعة بكثرة على بعضها فى هذه الضلفة .

من خلف الكتاب الذى كان يقرؤه طلال نظر إلى قلقاً وقال :

— أكثر من دقيقتين تأخير يا ريم ... لقد جعلتينى خلالها أموت ألف مرة ومرة ...

فقلت له متسائلة ..

أنا لم أفعل شيئاً فى عدادها ... أليس كذلك ؟ ؟

قال .

— بلى لقد ضبطتها قبل السفر ...

ثم نظر فى ساعته قلقاً وقال :

ولو أن الطائرة فى هذه الدقيقة تعتبر متأخرة أربع دقائق عن بدء هبوطها ...

ضحكت وأنا أقول له :

أنت كثير الحساب يا طلال ...

وبدت لنا باريس كحسناء تجيد فن اختيار ملابسها ... ودارت الطائرة دورتها حول المطارات لنطلعنا على رداء باريس من كل جانب. وحين اقتربت الطائرة من ممر الهبوط أيقنت أن أغلب ما تلبسه باريس هو المجوهرات البراقة حتى فى الصباح ، هكذا تبدو هذه المدينة للوهلة الأولى ... وكل شىء فيها قد حيك بأصابع فنية قلت لنفسى :

ـــ وهل يخرج المسخ من الجمال ، فكيف بأصحاب هذه المدينة الحالمة أن يعملوا على قتل شعب بأ كمله من أجل تلك الحفنة الصهيونية التى تستوردها حكومة إسرائيل من كافة أنحاء العالم تحت عوامل إغراء كثيرة ...

تحت أمنيات بأرض الميعاد ....

بالأرض الشاسعة والبيت الدافىء ..

ببياراتنا وسلبية العرب التى لن تزعجهم مهما .. ومهما ...

كنا أول من هبط سلم الطائرة يدى فى ذراع طلال وهو قد وضع ابتسامة على شفتيه أحسست لها طعم الصدق فإن جزءاً من خطتنا قدر له النجاح ...

بعد فترة قصيرة كنا نستعد للدخول فى الطائرة الأخرى من نفس المطار إلى وطننا ... متجاورين جلسنا فى انتظار قيام الطائرة .. دقائق أصعب دقائق مرت على فى حياتى أحسست أن أذنى يخرجان الشرر ، وطنين فى تجاويف عقلى يصيب مؤخرة رأسى بما يشبه التخدير المؤلم ...

أخرجت مرآتى من حقيبتى ... أراقب ظلى القلق يتمايل فى خمرة الضجر ولست أسمع سوى الثرثرة العالية من الركاب ومن عمال الطائرة .

الدنيا تبدو ذابلة والعرق يتصبب منى بغزارة كل شىء ينقلب أمام عينى ...

الروعة إلى المسخ ...

الرعشة الأنيقة إلى الاضطراب المخيف ...

والناس تثرثر فى كثرة أريد أن أتكلم ... أحس الموت يقترب منى ... اليوم كأنه يوم النهاية . وقد تركنى طلال ليستطلع الخبر ... تأخير خمس عشرة دقيقة عن موعد قيام الطائرة ...

ولكنه عاد مبتسما وأمسك يدى يشد عليها ثم همس فى أذنى قائلا :

ــ اطمئنى هناك شخصية كبيرة ستركب الطائرة وهى سبب هذا التأخير يا ريم ..

عينى معلقة على فتحة باب الطائرة أود أن أرى تلك الشخصية التى كانت سبب عذابى .. !! وكانت دهشتى أكبر من عذابى حين وجدته بقامته العريضة وتلك الصديقة البيضاء التى لا تفارق ركن فمه كأنها شىء مكمل له .

بحركة لا إرادية تحسست ردائى أبحث عن علبة الثقاب فلقد كان المستر جون سميث رئيس منظمة غوث اللاجئين كان يبدو نحيفاً عن قبل وشريط سريع تارة وبطىء تارة أخرى يمر فى مخيلتى وأتذكر حياتى فى أطراف فلسطين وأخى ماتى على الأسلاك الشائكة ثم لقائى الشاذ معهم حين اعتدوا على ... حياتى فى المخيمات وجون سميث يحنو على ويسمع لى ... ثم يوم هروبى معه إلى تل أبيب و ... و ...

لكم أحس بفضل هذا الرجل ...

وابتسمت ... كانت الطائرة فى منتصف الطريق فقلت أحدث نفسى .

— ها نحن أولاء يا مستر جون لم يعد يكفينا ما تقدمه لنا غوث اللاجئين ...

أسندت رأسى المتعب إلى الخلف ورحت فى إغفاءة قصيرة جداً . قمت بعدها أبغى الوصول إلى دورة المياه ...

فقال لى طلال مازحاً .

— ما ذا تبغين ... وضع قنبلة أخرى ريم ؟

ضحكت وأنا أقول له :

— لا لا بالطبع أود أن أصلح من شأن نفسى فلابد أن خطابى فى حوزة ياسر منذ صباح اليوم .

نظر إلى متعجباً وقال :

— لا يمكن أن تنسى المرأة نفسها ... ومع ذلك أنت محقة فلابد

أن « ياسر » ينتظرنا هناك .

ياسر ... ياسر ... ياسر ...

هذا الإسم يدق فى أذنى منذ مولدى ... وأعتقد أنى سأظل أسمعه حتى وأنا ألفظ أنفاسى الأخيرة ...

ياسر ... ياسر ... ياسر ...

فمنذ نعومة أظافرى وأول ما وعيت لنفسى كان ياسر فى دارنا بعد أن مات والده ... لعبت على ركبتيه طفلة فى يافا وكان دوما بمثابة الحصن الذى يطمئننى برغم بعد المسافة بينى وبينه .

أين أنت يا أبى أيمكن أن تكون مازلت حياً لتقرأ فى جرائد الغد عن ريم ابنتك ، بعد أن نسفت الطائرة وهى فى الجو بعيدة عن باريس وبعيدة جداً عن تل أبيب .

أرأيت يا والدى كيف فعلت بى عيناك وتلك النظرة الأخيرة قبل أن ترحل عنا .

آه يا أبى لكم أشتاق إليك وأشفق عليك ... ليتك تعود يوماً .

— ترى بأى الطرق سيلقانى ياسر ... ؟ ؟

أيفتح لى ذراعيه القويتين لأرتمى بجسدى وكل آلام روحى بين ذراعيه القويتين يضغط على ويخبئنى فى ركن من صدره ... ويمس على شعرى بأصابعه الحنون ... أم لعله يحملنى بين ذراعيه من على الأرض ليجرى بى فى البعيد حيث نحيا فى كوخ أحلامنا .

الكوخ ... الكوخ ...

تلك الكلمة فجرت آلاف المعانى فى نفسى ! !

فن أين لنا بالكوخ ؟ ؟

ونحن ما زلنا نكافح لنحصل على أرض لنا ثم يأتى بعد ذلك دور بناء الكوخ .

لحظات عبرت بقلبى ... لحظات لها طعم القسوة ... طعم الحقيقة التى لا مفر منها .

وعرفت أن ياسر سيلقانى مرحباً يضغط على أصابعى وربما ينظر فى عينى ويقول :

— مرحباً بك فى قلب منظمتك فتح .

تمت بحمد الله

رقم الإيداع ١٩٧٠/٢١٢٤